تاريخ ما بين السطور
يوم امتلئت القلوب بالضياء

رمضان مصطفى سليمان

تمهيد

تُعدّ عبارة **" يوم امتلأت القلوب بالضياء"** وصفًا بليغًا للاحتفال بمولد النبي ﷺ؛ فهي لا تحيل إلى يومٍ محدّد في التقويم، بقدر ما تعبّر عن لحظة تاريخية وروحانية أشرقت فيها الإنسانية بفجرٍ جديد، حيث تجسّد النور في ميلاده الشريف، وانبثقت من سيرته قيم الرحمة والهداية والخير. لقد كان مولده ﷺ بداية مرحلة فارقة في تاريخ البشر، إذ امتلأت القلوب بالإيمان الصافي، واستضاءت الأرواح بنور الرسالة، وتفتّحت أمام الإنسانية آفاق جديدة من الفضيلة والعدل والأخلاق.

إنّ التعبير عن امتلاء القلوب بالضياء يحمل دلالة مجازية عميقة، إذ يشير إلى الأثر البالغ الذي أحدثه مولده المبارك في وجدان الناس، بما جلبه من هدى ونور، وما مثّله من وعدٍ بالارتقاء الروحي والفكري للأمم. فالمولد النبوي الشريف لم يكن مجرد حدث ميلاد عظيم، بل كان نقطة انطلاق لمشروع إلهي لإصلاح البشرية وإرشادها إلى سواء السبيل.

وفي الصفحات القادمة، سأتناول ما رافق هذه الولادة المباركة من أحداث وعلامات، ابتداءً من ولادته ﷺ، مرورًا بانتقاله إلى مرضعته حليمة السعدية وما صاحب تلك المرحلة من بركات، ثم عودته إلى كنف أمه آمنة بنت وهب، وصولًا إلى وفاتها ورحيله ﷺ إلى كفالة جده عبد المطلب، بما حمله ذلك من دلالات عميقة في تكوين شخصيته المباركة وإعدادها لحمل الرسالة

إشراقات رمضان بين مكة والرسالة

أيام رمضان المباركة تفيض بالنور، ويغمرها السكون المهيب، وكأن الأرواح فيها تُرفع إلى مقام أسمى. وأجمل ما يشرق في تلك الليالي وأقدس ما يُروى، هو كل ما يسرّ أشرف الخلق، سيد البشر، إمام المتقين، وخاتم النبيين، الرحمة المهداة، سيدنا محمد ﷺ.

ومن أرض الرسالة، من مكة المكرمة، تلوح إلينا الإشراقات الأولى. من تلك البقعة الطاهرة التي شهدت لأول مرة نداء بلال رضي الله عنه، يعلو صوته بالحق في خير نداء وأعظمه بركة :**لا إله إلا الله** . إنها مكة، مهبط القلوب ومركز الشوق، التي تحتضن في طياتها أسرار البدايات الأولى.

ولنعد إلى العام الأربعين قبل الهجرة، حيث كانت مكة تعيش في بحبوحة من الرخاء، يختلط فيها ترف التجارة ببريق الأصنام. هناك نرى غريبًا يقف في ساحة الحرم، عيناه تائهتان، ولسانه ينكر ما يراه. فإذا برجل من أهل مكة يقترب منه، ثملًا من النبيذ، صوته متثاقل كأنه المخمور:

« تعال يا فتى، ما هذا الذي تنكره؟ »

أجابه الغريب:

« أنكر كل شيء أراه حولي. »

ضحك الرجل ساخرًا وقال:

« تنكر ترف أهل مكة؟ فأنت إذن لست من أبنائها، فما من أحد يجهل ما نحن فيه من نعيم إلا الغريب عن أم القرى. قل لي إذن، ماذا تنكر؟ »

قال الغريب وهو يشيح ببصره عن السيف المعلق في حزام محاوره:

يروعني سيفك هذا، فكيف أتكلم؟ »

رد الرجل بثقة :

« لا تخف، فلن أسله إلا إذا رأيت منك ما يريب. تكلم، فإن أشراف قريش في شغلٍ عنا الليلة؛ أبو علي أمية بن خلف رزق بمولود أسماه عقبة، وهو يسمر مع قومه فرحًا بالدنيا. تكلم، ماذا تنكر؟ «

قال الغريب بحزم:

« أول ما أنكره هو هذا الشراب الذي تتلذذون به. «

ضحك الرجل وقال بسخرية لاذعة :

« النبيذ؟ أنت أول من ينكره، وهو أحب ما تهواه قريش. «

فأجابه الغريب:

« وأين؟ في الحرم، في جوار الكعبة! «

قهقه الرجل قائلاً:

« كأنك لا تعلم أنّ النبيذ غرام قريش، وما أشهى إلينا من أن نجعل سمرنا وشرابنا في سرة مكة، حول بناء الكعبة ذاته. «

لكن الغريب لم يتوقف، وأشار بيده إلى الأركان:

« وهذه الأصنام التي تزاحم باحة الكعبة؟ بلهاء صامتة، قابعة فوق السطح، على الأركان والأبواب، بجوار زمزم والركن. ثلاثمائة صنم أو يزيد، ولكل قبيلة من العرب صنمها هنا. أي دين هذا؟ «

قال الرجل وهو يضحك بمرارة:

« أتراني أحدثك عن دين قريش؟ المتطهرون من أهل مكة أدرى مني بذلك، وهم لا يزيدون عن عدد أصابع يدك. أما نحن، فديننا هبل، سيد أصنام العرب. «

فسأله الغريب:

« أ دينكم هو هذه الأحجار الجامدة؟ «

انتفض الرجل غاضبًا مزمجرا :

« ها قد قلتها بجملة قصيرة، فلا تزد وإلا قتلناك. لكن تعال، تعال، فأنت ضيفي الليلة في ندوة أبي علي، وستسمع هناك ما يطربك. «

قال الغريب بحدة:

« أسمع ماذا؟ «

فأجابه الرجل ساخرًا:

« اليوم اجتمع الضيوف من البادية واليمن، ومن جماعة المناذرة بالحيرة، والغساسنة بالشام. كل يروي أخبار ملوك وقصص لهو ومجد. تعال لتسمع ما يبهجك، فليس في مكة أحلى من السمر حول الكؤوس. «

لكن الغريب أطرق برأسه وقال:

« يا أخا العرب، ما عند أصحابك ليس ما أبتغي. إنني لا أريد أن أسمع صخب المجالس ولا أن أرتوي من نبيذ يذهب بالعقول. إنما أريد أن أسمع كلمة الحق، كلمة تُحرر القلب من عبودية الأصنام، وتعيد الإنسان إلى رب السماوات. «

ساد صمت قصير، ثم التفت الرجل نحو الكعبة مترددًا. كأن في داخله شيئًا يهتز، شيئًا يخبره أن هذا الغريب ليس كسائر الغرباء. فالكلمة التي ينشدها، ستولد قريبًا على هذه الأرض، وتشق دربًا جديدًا للتاريخ.

وهكذا، بين نداء الغريب وإنكار القوم، كانت مكة على موعد مع فجر جديد، فجر لا يشبه أفراح أبي علي ولا مجالس قريش، بل فجر يشرق بنور النبوة، حيث يصدح صوت محمد ﷺ بالحق الخالد :**قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون**.

X

في مكة، وفي ندوة من ندوات قريش، حيث يجتمع السادة والوجهاء، همس لي صاحبي قائلاً:

« وماذا تريد أن تسمع؟ إنك لا تبحث إلا عن المتاعب في مكة، بين أهلها. اجلس بجانبي هنا، ولا تتكلم، فلو سمع القوم بما تنكر لكان لك عندهم شر كبير. «

جلست معه في مجلس أبي عليّ، أمية بن خلف، الرجل الوقور الأنيق، المهيب في قومه. تبادل الحاضرون أجود الشعر، ورووا من قصص البادية ما أطرب الأسماع . غير أن رجلاً بعينه لفت أنظارنا، شيخاً مهيباً في السبعين ، يعلو وجهه قلق خفي ، وتترقب عيناه شيئاً غير ما يشغل القوم . لم يمد يده إلى نبيذهم، ولم ينكره صراحة ، وإنما ظل يلتفت بين الحين والآخر إلى باب المسجد ، كأنما ينتظر خبراً عظيماً.

وفجأة صاح الشيخ بلهفة:

« أليس هذا ولدي عبد العُزّى الذي دخل لتوه من باب المسجـد؟ «

قال له صاحبه:

« هو واللات يا شيبة! نرى البشر يملأ وجهه، فلا نظنه إلا جاءك ببشرى عظيمة، كأن ولد لك اليوم مولود. «

اقترب عبد العُزّى مسروراً وهو ينادي:

« أبتاه! أبتاه! لقد وُلد لك الساعة حفيدا ! «

قال الشيخ، وقد اتقدت عيناه:

« ابن عبد الله؟ وكيف هو يا عبد العُزّى؟ «

فأجاب في فرح:

« كالبدر سَنى، واللات يا أبت، تعال فانظره. «

نهض الشيخ مسرعاً، يكاد يهرول، يمشي وراء ابنه إلى بيت آمنة بنت وهب، زوجة ولده عبد الله الذي رحل متاجراً إلى الشام ولم يعد . كان الشيخ هو عبد المطلب بن هاشم ، سيد قريش وشيخها المطاع.

سأله وهو يمشي:

« ومن كان معها ساعة وضعت ابن عبد الله؟ «

قال عبد العُزّى:

« كانت عمتي سمراء أم الحارث ، ومعها الشفاء جارية أخي عبد الله ، وثويبة جاريتي . واللات يا أبت ، ما إن بشرتني ثويبة بالمولود حتى صحت في الناس :

لا تسعني الفرحة! وقلت لها: أنت حرة ببركة ابن أخي. «

فقال عبد المطلب:

« لقد أحببت عبد الله حباً عظيماً، وحبي لابنه سيكون أعظم. «

دخل عبد المطلب غرفة آمنة ، فحمل الوليد الصغير بين يديه ، وقبّله وهو يبكي من شدة الفرح . ثم رفع رأسه وقال:

« لأسمينه محمداً. «

فقالت آمنة في خشوع:

« لقد رأتني رؤيا ، جاءني آتٍ يأمرني أن أسميه أحمد. «

ابتسم عبد المطلب وقال:

« هو محمد، وهو أحمد. هما من أسمائه التي ستُذكر على مر الزمان. ما أجمل وجهك يا محمد! «

كان مولد هذا الطفل حدثاً غير عادي . بدت مكة كلها كأنها تتهيأ لفجر جديد . وبنو هاشم تسابقوا في عتق عبيدهم إماءً وذكوراً، كأن قدوم محمد قد فجّر فيهم شعوراً بالتحرر الداخلي . كانت تلك أول بشائر عهد سيأتي بالخير ، عهد يحرر فيه محمد البشر من كل عبودية لغير الله : من عبودية المال، ومن عبودية الخوف، ومن عبودية الطين للطين.

ترددت في الأفق آية كأنها نزلت آنذاك:

﴿فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة﴾

لقد وُلد محمد، في عالم كانت الشرائع فيه كلها تُقر العبودية وتوسع دائرتها، فجاء ليصدع بالوحي، معلناً أن الكرامة الحقيقية لا تُنال إلا بالتقوى:

﴿يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾

كان مولده أول إرهاصات النبوة، إشارات مبكرة أن هذا الطفل سيغير مجرى التاريخ، وأن صوته سيعلو يوماً في صحراء الجزيرة بدعوة حرية وعدل ، دعوة تكسر القيود وتعيد للإنسان إنسانيته.

ومن هناك، من بيت آمنة بنت وهب، بدأ فجر جديد يتسرب إلى قلوب طالما أنهكها ليل الوثنية .

لقد وُلد محمد بن عبد الله، وولد معه عهد التحرير الأعظم.

X

الحارث وحليمة: لحظة البشارة

يقول الإعرابي :

الحارث بن عبد العُزّى بن رفاعة، هكذا كان اسمي قبل أن تظلّني بركات ابني، فإذا بي أُدعى بعد ذلك *:الحارث بن عبد الله*.

فنسأله في دهشة: «ابنك؟«!

فيردّ وعيناه يلمعان من العجب: «أي عجب أعجب من هذا! يدعوني رسول الله ﷺ *يا أبتِ* ، وتُنكرون أنتم عليّ ذلك«!

قلت له ملتمسًا التبيان:

«لا تغضب يا أخا العرب ، أدهشني قولك ، ولا أعلم ما دفعك إليه . لعل عندك الخبر اليقين«.

تنهد الحارث وقال: «عشت عمري كله بين قومي من بني سعد«.

فقلت: «بنو سعد! أفصح العرب لسانا «!

قال: «صدقت. ومن يجهل فضلنا في الفصاحة والبيان، إلا جاهل غليظ الحس؟ لقد كان أشراف العرب يبعثون إلينا بأبنائهم، فينشأون بيننا ، فتستقيم ألسنتهم ، ويتقوّى بيانهم ، ويعودون على الناس بالشعر والفخر . أشهر شعراء العرب وأبرعهم كانوا من بني سعد بن بكر بن هوازن . وكذلك نساؤنا، هنّ أبرع المرضعات وأكثرهن لبنًا ، يخرجن كل عام إلى مكة يلتمسن الرضعاء. حتى جاء ذلك العام المختلف، الذي أقبل علينا بوجه عابس، غير أنه كان يحمل في طيّاته بركة لم ندرِها يومئذ«.

قلت: «أي تناقض هذا؟ تصفه بالبركة ، ثم تذكر عُبوس وجهه ؟«!

ابتسم وقال:

«ستفهم حين أخبرك . ففي مطلع تلك السنة أجدبت الأرض، وأمسكت السماء قطرها ، وضاقت علينا موارد الرزق . عندها قالت لي زوجي **حليمة السعدية** :

يا حارث، هلا خرجنا إلى مكة مع الخارجين، لعلنا نظفر بطفل نرضعه، ويمنّ الله علينا من أبيه ما يُصلح حالنا؟ «

فقلت لها: «وهل أندى على قلبي من هذا يا بنت أبي ذؤيب؟ لكن كيف السبيل وقد أنهكتنا السنة الشهباء؟ بماذا نخرج، وما بقي لنا ظهر يُحمل عليه؟«

قالت:

«عندنا الآتان الحمراء«.

فضحكت:

«والله لو ركبتها ساعة لنفقت«.

قالت:

«أنا أخفّ منك لحماً، فدعها لي، واركب أنت وولدنا الناقة«.

قلت: «أيّ ناقة ؟ تلك التي ما تبضّ بقطرة لبن، حتى صار هزالها مضرب المثل؟«!

قالت:

«لا أبالي بسخرية أحد ، فلو بقينا دون طفلٍ نرضعه ، لمتنا في أرضنا هذه جوعاً«.

يقول الحارث:

« فخرجنا ، حتى بلغنا مكة . وكان من عادتنا أن ننزل بخيامنا عند **الحجون** ، فيبقى الرجال هناك، وتخرج النسوة إلى بيوت سراة مكة يلتمسن الأطفال . وفي مساء اليوم التالي، عادت حليمة، ولم يكن بين ذراعيها ما أملناه«.

قال لها الحارث:

«ما وراءك يا بنت أبي ذؤيب؟«

قالت وهي تبتسم ابتسامة فيها مرارة:

« لا تسخر مني يا حارث. والله لقد بذلت جهدي، فما فزت بما فازت به رفيقاتي «.

قال ممازحًا:

«عسى ألا يقولوا:

شاخت بنت أبي ذؤيب، ولم يعد صدرها يبضّ باللبن«!

تنهدت وقالت:

«لست أدري ما حدث . كلما ذكروا لي بيتًا فيه رضيع ، وجدت صاحبة لي قد سبقتني إليه «.

فقال:

«أما وجدتِ ولو رضيعا واحداً في بيوت بني مخزوم أو بني هاشم؟«

قالت بتردد:

«عرض عليّ طفل من بني هاشم... ولكني أعرضت عنه«.

سألها في عجب:

«ولماذا يا حليمة ؟«!

خفضت رأسها وقالت: «لأنه يتيم... لا أب له، وما ظننت أن في تربيته بركة لنا أو عونًا في شدّتنا«.

ويبتسم الحارث ابتسامة غامرة بالمعنى، ثم يقول :

«وما علمنا أن ذاك اليتيم هو الذي سيملأ الدنيا نورًا، ويجعل من بيتنا الصغير مهوى للبركات، ومن حليب حليمة غذاءً لخير من مشى على الأرض«.

X

في ذلك الصباح المهيب، كانت مكة تضج بحركة الناس والوفود، والهواء مشبع بأحاديث تبادلها القادمون من كل ناحية، والرضع يُعرضون على المرضعات طلبًا للبركة والعافية. جلست حليمة السعدية إلى جانب زوجها الحارث، وقد خيمت على محياها غشاوة من الحيرة والتردد.

قال الحارث وهو يتأملها في قلق:

ويحك، ما بالك مترددة؟ كم سنة نعود أدراجنا بلا رضيع؟

خفضت حليمة عينيها ، وأجابت بصوت متقطع:

لم أره بعد ، لكن جده عبد المطلب كلمني فيه.

رفع الحارث حاجبيه دهشة:

عبد المطلب؟ سيد مكة؟! أتعنين أن نرد ابن عبد المطلب؟!

هزت رأسها ببطء ، وقالت بمرارة:

إنه ليس أباه، بل حفيده.

تراجع صوت الحارث وقد أصابه الاستغراب:

ولكن عبد المطلب مشهور بحب أحفاده كما يحب أبناءه، ألا يكفي أن يكون الطفل في كنف سيد قريش؟

تنهدت حليمة، وقالت وكأنها تكشف سرًا مثقلًا:

الطفل يتيم، لا أب له.

ساد الصمت لحظة، ثم قال الحارث في أسى:

يتيم... وما لنا ولليتامى ؟

ردت حليمة وقد ازدادت حيرتها:

لقد بلغني أن عبد المطلب لم يعد ثريًا كما كان ، وأمه من بني زهرة ، فقيرة الحال . فما عسى أن نصنع بطفل كهذا ؟

اقترب الحارث منها ، كأنه يبحث عن بصيص أمل:

أوَ لم يترك له أبوه الذي مات شيئًا؟

أجابت بحزن:

ترك له جارية وبعض المتاع القليل. ما أحسب أن في هذا ما يصلح حالنا يا حارث. فطفل يتيم لا أب له يرعاه ولا من يكلؤه، إنما هو إلى أمه وجده، وأي قدرة لأم ضعيفة أو جد مشغول بالأحفاد؟ إنما هو عبء لا رجاء فيه.

أطرق الحارث رأسه وقال في صوت خافت:

إذن نعود بلا رضيع ؟

أحسّت حليمة بغصة في صدرها ، وقالت محاولة التخفيف :

إن مكة لن تفرغ من الرضعاء، ولست أول من عادت بلا طفل اليوم. وغدًا لنا عودة إلى بيوت مكة ، فما أكثر ما يُعرض علينا من أبناء السادة والأغنياء. لكنه يحزنني أن أخيب رجاءك اليوم كما خيبته بالأمس.

ربّت الحارث على كتفها بحنو وقال:

لا عليك يا بنت أبي ذؤيب ، فما ضاع السعي عند الله ، وإن مكة لن تنفد من الرضعاء، وإن غدًا لناظره قريب.

كانت الكلمات تلامس قلب حليمة ، لكنها لم تبدد غشاوة التردد التي تحاصرها . كيف تحتضن طفلاً لا مال له ولا جاه ؟ يتيمًا لا يعرف له سندًا سوى جدٍّ مسن وأمٍ حزينة ؟ لقد اعتادت المرضعات أن يرجعن محملات بالهدايا والنِعَم، أما هذا اليتيم فليس وراءه إلا العوز والفاقة.

غير أن شيئًا ما في أعماقها كان يتمرد على هذا المنطق البارد . إحساس خفي ، لا تدري من أين يتسرب إليها ، كأنها تسمع صوتًا داخليًا يقول:

« لا تزدرين هذا الطفل، ففيه سر لا يعلمه إلا الله . «

لكنها لم تبح به ، بل كتمته بين ضلوعها.

وهكذا مضت مع الحارث بخطى بطيئة ، وعيونها تلتفت بين حين وآخر إلى بيوت مكة ، لعل الغد يحمل لها رضيعًا آخر، بينما بقي اسم ذلك اليتيم الصغير يتردد في خاطرها ، يتناوب بين الإهمال والحنين ، بين التردد والنداء الخفي الذي يأبى أن يصمت.

اليتيم
الذي فجّر الله في قلبه ينابيع الرحمة تفجيرًا...

بسم الله الرحمن الرحيم : « *وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين* «
.

أجمل حديث يطرق القلب في ليالي هذا الشهر المبارك هو حديث الرحمة المهداة، حديث محمد رسول الله ﷺ، الذي تفيض سيرته كالنور في صحراءٍ عطشى.

كنتُ البارحة مع الحارث بن عبد الله بن رفاعة، فسمعته يقول عن الحبيب

« *أخذ بيدي، ولم يتركني حتى أدخلني الجنة* » .ثم صمت قليلًا، كأنه يستحضر في داخله تلك اليد الممدودة بالسكينة، وعاد يقول لي:

كما أخبرتك يا بُني، تلك الليلة بتنا في خيمتنا بمضارب بني سعد، عند الحَجُون من مكة. كانت زوجتي حليمة تحدثني قبل أن يغشاها النوم عن أملها الغريب: أن تفوز غدًا بطفلٍ من سراة مكة، تحتضنه وتغذوه من لبنها، ثم تنشئه في صحرائنا التي تهب أبناءها صدرًا رحبًا، ولسانًا مستقيمًا، وبيانًا بليغًا. كانت كمن تحلم بمستقبلٍ لا تدري أنه سيغدو قدرًا يغيّر وجه الأرض. ثم نامت، وسافرت روحها في وديانٍ من سحر، حتى انبثق الصباح.

ذهبت مع النساء المرضعات، وابتلعها الطريق. طال غيابها، وحين علا النهار وامتد الظل، عادت النساء مثقلاتٍ بالرضع، وعلى أذرعهن أطفال يبتسمون للحياة، يتبعهن الخدم يحملون الهدايا من آباء مكة. وحدي كنتُ أنتظر حليمة، وقلقٌ خفيّ يزحف إلى قلبي.

قال لي صاحبي مجاشع وهو يراقب القافلة العائدة :

تعال نقتل الوقت بالنظر إلى مكة وبيوتها.

فأجبته:
أندخل مكة الآن؟

ابتسم وقال:

لن ندخلها، لكن من تلال الحَجُون سنطلّ على أم القرى. سترى منظرًا لا يشبه سواه؛ الحرم يتوسّط القلوب كما يتوسّط حجارة الوادي.

صعدنا إلى تلال الحَجُون، والريح تعبث بأطراف ثيابنا، حتى بلغنا مرتفعًا يتيح لنا أن نرى مكة ببيوتها الصغيرة الملتفة كالعقد حول الكعبة، والجبال تحرسها كحراسٍ لا ينامون.

قال مجاشع وهو يشير بيده:

ذاك جبل قُعيقعان. هنا، يا أبا عبد الله، قُرعت الطبول، واصطكت السيوف. هنا تدافعت قلوب الرجال كما تتدافع الصخور في الوادي. تقابل الخصمان: السميدع ومضاض بن عمرو، يتنازعان السلطان. انهزم مضاض، وولى هاربًا، وساد السميدع مكة.

قاطعته أسأله:

وإلى أين تسلل مضاض بعد هزيمته؟

أجاب :

إلى جدة، أراد عبور البحر إلى الحبشة، لكن الشوق كان أثقل من الموج. ظلّ طريدًا في البراري حول مكة، يقتات على الذكرى. لم يستطع أن يدخلها، ولم يقوَ على مغادرتها. كانت مكة تسكنه أكثر مما يسكنها.

قلت له في مستغربا في دهشة:

وتركه السميدع؟ لم يقتله؟

ابتسم مجاشع :

لم يكن السميدع غليظ القلب. كان يرسل إليه الطعام والكساء سرًا مع الأعراب. فإذا سألهم مضاض عن الواهب، أنكروه كما أوصاهم. كأنه كان يقول له:

خذ الحياة، حتى لو سلبتك الملك. «

أطرقتُ لحظة، شعرت أن في الحكاية ظلًّا من رحمةٍ عجيبة، رحمة تسبق رسالة سيولد معها طفل يتيم في صحراء بني سعد.

وهنا، عاد قلبي إلى حليمة التي غابت طويلًا. تخيلتُها تسير بين أزقة مكة، تبحث عن رضيع، فيرفضها السادة لأن في حضنها شيم الفقر. لكن القدر، القدر وحده، كان يقودها إلى بيت عبد الله بن عبد المطلب، إلى ذاك اليتيم الذي لم يعرف حضن أبيه، والذي أراد الله أن يحتضنه صدر امرأةٍ من البادية، لتكون الصحراء أول مدرسةٍ له، والريح أول معلمه، والسماء سقف طفولته.

أحسست أن شيئًا هائلًا على وشك أن يُزرع في تاريخ البشر. كأن مكة كلها تنتظر بفارغ الصبر . البيوت الصامتة تنتظر و تترقب، الجبال الصماء تنتظر و تتأمل، والسماء فوقها تتهيأ استعدادا لانبلاج الرحمة.

ذلك الطفل الذي ستأخذه حليمة لم يكن مجرد رضيع، بل كان بداية عبور من ظلمات إلى نور، من قسوةٍ إلى رحمة. كان سرًا إلهيًا يُبذر في صحراء قاحلة ليصير روضةً للأمم.

قلت في نفسي وأنا أحدّق إلى مكة من تلال الحَجُون:

إنه اليتيم الذي فجّر الله الرحمة في قلبه تفجيرًا، وجعل من يتمه أفقًا تتنزل منه المحبة على العالمين. رحمته لم تكن عاطفة عابرة، بل كانت قدرًا يغيّر مجرى التاريخ.

وهكذا، ظللت أنظر إلى مكة من علٍ، كأنها قلبٌ نابض، وفي داخلي نداءٌ صامت: قريبًا سيولد النور، ويغمر كل هذا الوادي.

X

كأنما كانت مكة في ذلك اليوم المهيب تغتسل بضوء خافت من شمس الميلاد، والزمان يتهيّأ لأن يُفتح فيه باب جديد من التاريخ المجيد . هناك عند مشارف الحجون، وقف **مضاض بن عمرو**، شيخًا هده الدهر وأثقل ظهره، يتأمل المدينة التي كانت يومًا وطنه. ينظر إلى بيوتها المصفوفة وسككها المتعرجة، كأنها خيوط ذاكرة ترفض أن تنقطع. تغمر عينيه دموع كأنها نهر شوق يتفجر من أعماق الصخر، وتتهدج روحه مع كل زفرة من صدره الذي حمل من الحنين ما يفوق طاقة البشر.

مدّ بصره نحو الصفا، وتمايل صوته الملتاع مثل نايٍ ينوح على أطلال غابرة، فأنشد بصوت أرجف الصخر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا *** أنيس، ولم يسمر بمكة سامر

بلى، نحن كنا أهلها، فأبادنا *** صروف الليالي والجدود العواثر

ثم أسدل صوته على المدينة كما تسدل العاصفة ستائرها، وأكمل بأنين يتشقق في صدره:

»وأبدلني ربي بها دار غربة، بها الذئب يعوي والعدو المخامر.«

تعلّقت أنفاسي بأصداء شعره، فإذا بالأرض من حولنا كأنها تهتز بذكرى منسية، وأحسست أن مكة كلها تبكي معنا بصمت. لكن صاحبي، **مجاشع**، أيقظني من غيبوبة الدمع حين لمس كتفي وهمس:

انظر يا حارث... أنصت.

فجأة اخترق الفضاء صوت غريب، كأنه يأتي من بطن الغيب لا من حنجرة إنسان :

»يا معشر قريش ، قد وُلد لكم ولد يملك العرب والعجم«!

كررها الصوت، فارتجفت القلوب وتزلزلت الجدران.

قال مجاشع وهو يحدق في الأفق البعيد :

أسمعتَ يا حارث؟

قلتُ :

أجل سمعت. لكن هل يُعقل؟ قريش تملك العرب والعجم؟ العرب نعم، قلوبهم معلقة بهذا البيت، بحجارة الكعبة التي يحج إليها القريب والبعيد. لكن العجم؟ أولئك الذين هزموا الروم في أقاصي الأرض، والذين يسوقون الناس بالعسف والحديد، أي مولود هذا الذي يقوى على رقابهم؟

ابتسم مجاشع ابتسامة المرتاب وقال :

ليس في مكة اليوم إلا من سمع هذا الصوت، وليس في الأرض من رآه. أهو جن يصيح في ظلمة الليل؟ أم هو وحي يتسرب من خلف الأستار؟

ثم أضاف وهو يخفض صوته :

ما من مرضعة في بني سعد إلا وحدثت بأنها سمعت الناس يتهامسون بولادة عظيمة. بعضهم يزعم أنه راهب يُدعى عيص، يصرخ منذ أعوام يبشّر بقدوم نبي. وبعضهم يقول:

بل هو حبر من أحبار اليهود، يخشى أن يظهر نبي من العرب فيسلبهم دعواهم القديمة.

سألته وأنا أحدّق في وجهه :

وما خوفهم من نبي يخرج من العرب؟

هزّ رأسه وقال بمرارة :

–لأنهم يزعمون أنهم وحدهم أصحاب السماء، وأن وحي الله حكر عليهم. ألم تسمع أنهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى، ثلاثتهم في سنوات قليلة؟ هؤلاء القوم لا يريدون أن يشرق نور خارج أسوارهم.

دهشت من علمه الغزير ، فقلت :

ما أعظم ما تحمل من أخبار يا مجاشع، من أين هذا كله؟

ابتسم وهو يستعيد شبابه لحظة وقال :

كنتُ تاجرًا أطوف بالشام، فكنت ألقى يهودها. كانوا يسألونني عن كل مولود يولد في قريش، عن اسمه، عن علاماته، عن نسبه. كانوا يترقبون شيئًا عظيماً.

ثم التفت إليّ وعينيه تلمعان بالحدس:

أتحسب أن هذا الصوت من بعضهم؟

كتمت أنفاسي برهة، لكن فجأة لم أملك إلا أن أشير نحو أسفل التل وأصرخ :

مجاشع! انظر!

التفت مذعورًا :

–أين؟

قلت :

هناك... أليست تلك زوجي **حليمة** على أتانها؟

فضحك ضحكة قصيرة كسرت ثقل اللحظة :

أتانك لا تسير بهذه السرعة يا حارث! أتانك تتحسس الطريق من هزالها ، ألا تعرف أتانك ؟ !

لكنني كنت واثقًا مما رأيت: ظلٌ يتهادى على الطريق، كأن القدر يقوده، ومعه سرّ سيقلب وجه الأرض.

X

كان الحارث لا يزال مأخوذاً بدهشة اللحظة، يردد في نفسه:

« وحقِّ ربي إنها هي، حليمة. «

وما إن سمع مجاشع حتى صاح متعجباً:

صدقت يا حارث! إنها حليمة لا شك فيها. تلك المرأة التي أقبلت قرب ناقتنا، زوجك أم إمامة. لكن ما بال أتانك يا حارث؟ أترى جناً يسوقها؟ فهي تسبق ناقتي كالسهم، تكاد تطير ولا تمس الأرض إلا مساً.

ضحك الحارث، وفي قلبه غبطة غامرة، وقال بمرح:

يا مجاشع، يأتيني خاطر عجيب: كأنها عادت تحمل رضيعين لا رضيعاً واحداً، والله ما رأيت أتاننا تمشي بهذه الخفة والمرح قط، كأنها ترقص على وقع أنغام خفية. عجباً! لنعد، يا مجاشع، لنعد مسرعين.

وما إن بلغ مضاربهم حتى أسرع الحارث نحو حليمة، فوجدها تنتظره بابتسامة يملؤها ضياء و نور، وهي تضم بين ذراعيها طفلاً كأنما تجلّى من سماء.

الت في نشوة لم يعرفها قلبها من قبل:

انظر يا حارث، إلى هذا الرضيع الوسيم، ما أروع قسماته! لقد حلت بي بركته منذ أن وضعته أمه بين يدي.

اقترب الحارث، مبهوراً بوجه يسطع كنسمة مباركة، وسأل في دهشة:

من أبوه ؟

قالت حليمة بفرحٍ يفيض:

هو اليتيم الذي حدثتك عنه بالأمس.

ارتجف قلب الحارث، وتمتم:

عجباً! لقد صدَدْتِ عنه بالأمس، فما الذي دفعك لقبوله اليوم ؟

أطرقت حليمة رأسها ، ثم رفعت رأسها بعينين لامعتين:

لو أنني رأيته أمس ما صددت عنه، ولكن الذي كلمني حينها كان جده. أما اليوم، فقد ساقني القدر إلى دار بني هاشم. كنت أمرّ قريباً منها، فخرجت جارية نادتني:

« يا أمة الله، ألستِ من مرضعات بني سعد؟ «

فأجبتها بنعم.

عندها قالت:

« هل عندكن طفل تعهدين به إلي؟ طفل ليس ككل الأطفال، كان يبكي، فلما مررت بنا كف عن البكاء وابتسم، واستدار ببصره كله نحو الباب، كأنه اختارك قبل أن تختاريه. «

تسارعت أنفاس الحارث وقال في تعجب:

طفل يختار مرضعته؟ ومن تكونين أنت ؟

أجابته الجارية بصوت متهدج:

أنا ثويبة، كنت جارية لعمه، فأعتقني يوم بشّرته بمولده. اسمه محمد.

توقف الزمن في سمع الحارث، وردد ببطء:

محمد؟! اسم لم نعهده في قريش.

قالت ثويبة بيقين عجيب:

وسترون منه ما لم يعهده أحد من أبناء قريش. تعالَ، ادخل معنا.

ابتسم الحارث كأنما يسخر من دهشته، وقال لحليمة:

ما الذي جاء بك من أرض بني سعد إذن؟ هلمي، لندخل.

وتسترسل حليمة حديثها، وقد أخذتها الذكرى بعيداً:

دخلت، يا حارث، فوجدت هذا الطفل المبارك بين ذراعي أمه. وحين علمت أنه ابن عبد الله بن عبد المطلب، لم أحفل بكونه يتيماً، فقد كان ينظر إلي بعينين كأنهما نهران من حب، حب لا يشبه حب الرضع ولا الكبار ، كأنه ينبوع حنان. وصدقت ثويبة حين قالت إنه كف عن البكاء لحظة مروري. رأيته بين ذراعي أمه يبتسم ابتسامة رقيقة، ويكاد يلقي بنفسه عليّ. فما إن حملته حتى التقم ثديي.

قاطعها الحارث مازحاً:

فلعل المسكين لم يجد فيه قطرة لبن !

أطرقت حليمة ثم رفعت رأسها، وفي عينيها دموع الدهشة:

وهنا كانت أولى بركات محمد. فما إن التقم ثديي حتى أحسستُ باللبن يتدفق فيه تدفق النهر الجاري، كأنما انفجر ينبوع في هذا الجسد الذي طالما قيل عنه إنه جاف لا يفيض.

ساد صمت مهيب، والريح تعصف من بعيد كأنها تصفق لتلك اللحظة. تمتم الحارث:

ما أعجب هذا الأمر! انظري إليه، يا حليمة، لقد ثبت بصره عليك، كأنما يعقد معك عهداً خفياً. وابتسامته هذه... كأنه يدرك كل ما تقولين.

ارتعشت حليمة، وأطبقت على الطفل بذراعيها خوفاً أن يُنتزع منها، وقالت بصوت مرتجف:

وحقك يا حارث، لم أعد أهتم بما تعطينا أمه، ولا بما يعطينا جده. لقد سكن حب محمد في قلبي حتى خشيت أن تعدل أمه عن أن تكِلَه إليّ.

وكانت كلماتها لا تشبه اعترافاً عادياً، بل كانت نبوءةً، خرجت من رحم القدر. فقد بدا أن هذا الرضيع لم يكن مجرد طفل، بل أسطورة حيّة، يُعيد صياغة قلوب من حوله، ويبدّل فقر الأرض غنىً، ويجعل الجفاف فيضاً، والدهشة يقيناً.

وهكذا، منذ تلك اللحظة، لم يعد بيت الحارث وحليمة كما كان. فقد دخل إليهما سرّ لم تدركه العقول بعد، لكنه نقش في قلوبهم أن هذا الطفل المسمى « محمداً « سيصير يوماً نور العالمين، ورحمة السماء للأرض.

الطفولة المباركة في مضارب بني سعد

حلَّ محمدُ بأرضِ بني سعد، غشى المكانَ سكونٌ مختلف؛ كأنَّ خبراً لطيفاً هَبَّ مع نَفَسِ الصبح، فتحوَّلت البيوتُ إلى أوعيةٍ تفيضُ بركةً لا تَعرفُ سببها. يلمحُ الناسُ بين يديهم الخير كما لو أنه نبعٌ يدورُ حولهم؛ لا يَغيظهم هذا الفألُ إلا أولئك الذين لا تُرضيهم النسماتُ الطاهرةُ. فالطفلُ الذي يَلعَبُ مع رفاقه، ويَركضُ بين النَّخل، ليس كأيِّ طفلٍ. في عيونِ الناس شيءٌ من الدهشةِ، وفي قلوبهم تَساءلٌ لا يَهدأ.

في أزقةٍ بعيدةٍ، وعلى تلٍ من تلالِ الشمال، يَهُبُّ قَلقٌ آخر. أحبارُ اليهودِ في بصرى يَجتمعون ويَهمسون، لا يَنامُ أحدٌ منهم من الليل. قال شمعون لصاحبه وهو يُشير بيدٍ تعبها السِنين: «ما أحسبه إلا هو يا شمعون، رأيته أمس وقد اختبأ خلف التل، ورمقته يلعب وكأنَّ العالمَ له وحده. لماذا لم نخطفه؟ لماذا لم نَرمي عليه حجراً؟«

ابتسم صاحبهُ ابتسامةَ من لا يَرتاحُ لنفاقه: «أحسستُ، وحقّاً، لو اقتربتُ منه لاحتواني الجنةُ» — كلامٌ غريبٌ، يحويُ تهوُّناً وخشيةً معاً. ردَّ شمعون بحدةٍ رقيقةٍ: «إنك خَوارٌ متردِّد. ما بَقاءك عليه؟ ما الذي يَخيفك من قتله؟ إن كان هو النبيُّ المنتظر فقد قُتِلنا قبله من أنبياءٍ في طورِ الشبابِ والرجولة. وإن لم يكن فله ديةٌ تُردُّ إلى بني سعد.«

اختلط الخوفُ بالمصلحة. البعضُ يَبصرُ في الطفلِ ابن عبد المطلب، ويخشى أن يَعلمُ الجدُّ أن قتله كان يدٌ بيدِ اليهود. «والله لو عَلِم عبد المطلبُ أن يهوداً قتلوا ولده لاستأصل قريشَنا من الجزيرة»، قال أحدُهم بوقارٍ يخفي الحيرة. ثم اقتُرِحَ ما بين أمرين: أن يُترَك الطفلُ تحت مراقبةٍ دقيقةٍ ثم يُبلَّغُ الخبر؛ أو أن يُصرف الأمرُ بالعقل مع حُلفاءِ الأحبار. «نعود إلى بصرى»، قال أحدهم، «نتدبَّرُ الأمر مع أخواننا الأحبار، ونسأل رُهبان النصارى؛ لعلَّ عندهم في الكتب ما يؤكّد أو ينفي.«

هنا، في وسطِ هذا الذي يبدو وكأنه مشهدٌ من تاريخٍ وكتاب، ينبثقُ سؤالٌ فلسفيّ: إلى أيِّ حدٍّ تُحوِّلُ المعرفةُ المُكتوبةُ مصائرَ الأحياء؟ كانوا يقولون: إن اسمَه وصفاتِه منصوصٌ في الإنجيلِ والتوراة، وأنَّ التاريخَ

في الكتبِ القديمةِ يَشهد. لكن التزامَ المعرفةِ البشريةِ بتحريفٍ وقَصٍّ ولصقٍ قضى على مصداقيةِ كلِّ كتبٍ على حِدَةٍ، بحسب مظاهرِ السخريةِ بين الحضور. «لقد زورنا ما زورنا»، قال أحدُهم وهو يضحكُ ضحكةَ من يَعرفُ عِبرته: «لو عاد موسى لَكان أنكر كلَّ ما أُضيفَ إلى التوراةِ من قصصٍ وحكايات .«

X

المشهدُ يتحوّلُ إلى بيتٍ آخر، حيثُ يجلسُ الحارثُ بن عبد الله بن رفاعة، زوجُ حليمةَ المرضعةِ، يروي حكايةَ الدهشةِ على لسانهِ، ويجعلُ الكلامَ رحلةً نفسيةً إلى داخلِ الحواس. «أكنتَ تَرقُب مكايدَ اليهودِ لولدِ عبد المطلب يا ابن رفاعة؟» سألَهُ مُجاشع بن عميرُ، الذي عادَ من مشوارٍ وقد تراءى له ما لم يرَسُمه عقلُه. ردَّ الحارثُ بصوتٍ فيه من الإقرار ما يكفيه: «لم يشغل هذا الأمرَ بالي في أولِ عهدِ محمدٍ بأرضنا، لكن صاحبي مجاشع أخبرني ذاتَ يومٍ: محمدٌ بعيدٌ عنا يلعب مع أترابه، ولا يسمع نجوانا. احذر اليهود على محمد يا حارث.«

توقف الكلامُ؛ وقعَ الصمتُ كقِبلةٍ بين الجملِ، ثم قال مجاشع بصوتٍ أهدأ منه: «في دهشةٍ سألتُهُ: اليهود؟ إنهم لا يَمرّونَ برِضانا إلا نادراً. قال: بل أراهم هذه الأيام يَكثرون المرورَ وراء التِلالِ الشمالية. فلا تدع محمداً يذهبُ قربها». هنا تَمتزجُ الخشيةُ بالمحبةِ: الخشيةُ من مكايدٍ قد تُقلبُ الأمانَ إلى دمار، والمحبةُ البريئةُ لطفلٍ لا يعرفُ سوى اللعبَ والنَّفَس.

في نصٍّ داخليٍّ، يَهبِطُ السردُ إلى وعيِ الحارثِ؛ كأنَّ ذاكرتهُ تُعيدُ ترتيبَ المشهد، فتتحوّلُ العيُون إلى مَرايا تُحدِّثُه عن نفسه: كيف يكونُ أميناً على ذلك الطفل؟ ما قيمةُ الحذرِ إن كُلُّ عقلٍ هنا يَخبرُه بأنَّ ما وراءَ التلال ليس إلا خوفاً من الممكن؟ في حديثٍ بينه وبين قلبه، يتساءلُ: «هل الحمايةُ أن تُبقيه مخفيّاً أم أن تُعلِنه للعالم؟ هل الخوفُ يبرّرُ الكتمانَ أم أن الكتمانَ يخفي نذرَ كارثة؟«

الراويةُ تتداخلُ مع الحواراتِ؛ تُعيدُ صياغةَ اللحظةِ كأنَّها سؤالٌ وجيهٌ: ما مصيرُ المدنِ حين يتشابكُ الإيمانُ مع السياسي؟ ما نصيبُ البراءةِ الفطريةِ حين يَتسلّلُ إليها ظنٌّ مُبرمج؟ في هذا السياقِ التاريخيِ الفيلسوف، يتحوّلُ الطفلُ إلى رمزٍ؛ ليس مجرد مولودٍ من صلبِ عبد المطلب، بل نَفَسٍ من احترازٍ وإيمانٍ ومخاوفٍ ومصالحٍ تقودُ أهلَ الأرضِ إلى مرايا متضاربة.

وفي منزلِ حليمة، حيثُ تدعوها أمُّها وتسمعُ قلقةً عن مرورِ الصحبةِ حولَ ولدها، تُرى المشاعرُ مُستَوطَنةً بين الحنانِ والقلق. تُصِرُّ حليمة على أن يبقى ولدها في المروج، لكن عقلَ المدينةِ يهمسُ بخلافِ ذلك: «هؤلاء يَرون فيه نجماً، ونحن لا نملكُ ضبطَ النجوم». الحوارُ بين الأجيالِ يبدو كأنه شِعرٌ مُقفى: الجدُّ يخشىُ على ماءِ الشرفِ، والوالدةُ تُحبُّ ببسمةٍ أكبر من خوفِ العالم.

تنتهي الحلقةُ بتثاقلِ المشاعرِ وامتدادِ السؤال: هل نَصنعُ التاريخَ بخوفٍ أم بشجاعةٍ؟ أم أنَّ التاريخَ هو الذي يَصنعُنا حين نَرفضُ أن نكونَ مصدرَ القرار للقلقِ؟ العيونُ التي ترقُبُ الطفلَ ستبقى ترقُب، والتلالُ الشمالية ستظلُّ خضراءَ بالأشخاصِ الذين يَحملونَ كتباً وأسراراً، وكلا الأمرين سيُعيدانِ تشكيلَ حكايةِ الأرضِ: بين من يريدُ حمايةَ البِراءة، ومن يرنو إلى تأويلِ الكتبِ القديمة.

هكذا، في أرضِ بني سعد، يظلُّ الطفلُ العظيمُ نسمةً تُمتحنُ بها قلوبُ الناس، وتُفرزُ منهم من يُحسنُ الظنَّ ومن يَسودُهُ الريبةُ. والقصصُ التي تُروى عنه لم تَخترْ بعدُ أن تكونَ تاريخاً أو أسطورة، بل هي سؤالٌ مفتوحٌ على مصائرَ ستُحاكُ على نارِ الزمنِ.

X

نبوءة بين الرمال

أرأيت منهم ما يريب؟

أجل، رأيت ثلاثة من أحبارهم يتتبعون الركب مذ غادرنا مكة. كانوا كظلالٍ ثقيلة تمشي خلفنا، ثم غابوا عامًا كاملًا، فإذا بي أراهم ثانية على الكثيب الشمالي، يرمقون مضاربنا بعيونهم الملتبسة، ويلتمسون محمّدًا كأنهم يتشمّمون أثره في الرمال.

قلت له في لهجة مازحة، أردت أن أخفف ثقل حديثه:

إنك لكثير الأوهام يا مجاشع.

لكنه لم يبتسم، بل غاص صوته في جدية عميقة :

لست واهِمًا يا حارث. لقد عادوا منذ أيام، يطلّون من وراء التلال الشمالية. ولقد تأملت وجوههم، فما شككت أنهم هم أنفسهم الذين رأيتهم من قبل.

لعلهم قوم آخرون، يشبهونهم .

بل هم، وحقّ السماء، هم. وهذا ما أثار ريبتي فيهم. أتذكر حديثي لك ونحن في قيقعان، بالحجون في مكة؟

حديثك عن مخاوف اليهود من ظهور نبي في العرب؟

أجل، إنهم قتلة الأنبياء، يخشون النور إذا لاح، فيسعون إلى وأده قبل أن يكتمل. وإني أخشى على محمد منهم.

رمقته طويلًا، ثم قلت متردّدًا :

أي حديث هذا؟ أتحسب أن محمّدًا هو النبي المنتظر؟ نبيّ العرب؟

ارتجف صوته وكأنه يستحضر غيبًا يتردّد صداه في صدره :

والله إن هذا ليملأ قلبي، وأعجب كيف لا يملأ قلبك.

صمتُّ قليلًا، ثم همست :

ما أكثر ما يأتي إلى قلبي من أمر محمد... إنه طفل لا كالأطفال. إن لعب بينهم بدا أهدأهم، وأشدّهم نظرًا إلى السماء، كأن عينه تنقّب في الغيب. ضحكه ليس صخب الصغار، بل ابتسامة هادئة، عذبة، كنسمة فجر. وما مست يده شيئًا إلا باركته الحياة.

أجابني بصوت يغشاه رهبة:

تلك هي العلامات يا حارث. كل نبي له علامات، وما نراه في محمد ما هو إلا ومضة من تلك العلامات. اليهود رأوها، سمعوا بها، أحسّوا أثرها، وهم أهل كتاب يعرفون ما يُنتظر.

وما في كتابهم ؟ صف لي .

فيه أن اسمه « أحمد « ، وأنه يخرج من العرب.

والنصارى ؟

في كتابهم مثل ذلك، لا يختلف. اسمه « أحمد « ، وهو من العرب.

ابتسمت ساخرًا، قلت كمن يهرب من اليقين :

ولكن اسم مولودنا محمد، لا أحمد.

تنهد مجاشع وقال :

هذا ما حيّرني. لكن دعني أحدثك بما سمعت في مكة العام المنصرم. لقد فارقت أصحابي، وذهبت إلى عبد المطلب، جدّ محمد. سألته عن سرّ هذا الاسم، فقال لي ما زاد قلقي.

وماذا قال ؟

قال:

أنا الذي أسميته محمدًا.

فسألته :

ألم يقل أحد منكم إنه أحمد؟

ثم حكى عبد المطلب:

« لما بشرني ولدي عبد العزى بمولده، أسرعت إلى دار آمنة. رفعتُ الصغير بين يدي، وقبّلته، وانفلت على لساني اسم محمد كأنه وحي لا أملك ردّه. فقالت لي آمنة: يا عم، لقد أتاني في المنام من أمرني أن أسميه أحمد. فقلت لها: هو أحمد، وهو محمد، وما أراه إلا بعض أسمائه » .

أحسست وأنا أسمع كلامه أن الغيب يتسرّب إلينا، ويطوي أسماءه كما تطوي الريح الأفق.

قلت لمجاشع:

أصدقني، يا سيد قريش، فإن الحرّ لا يكذب. هل رأيت عند مولده ما أثار دهشتك، أو دفعك إلى التأمل؟

أطرق قليلًا، ثم رفع رأسه كمن يستعيد مشهدًا يراه في قلبه :

رأيت الكثير. سمعت الكثير. حدّثتني أمه لزوجةٍ من قريش تُدعى سمراء أن آمنة، قبل الولادة بلحظات، سمعت صوتًا يناديها:

« آمنة، يا آمنة » .

أجابته بطمأنينة:

« أأنت الذي بشرتني من قبل أني أحمل خير خلق الله؟ »

فقال لها:

« هو ذاك، فما تحسين الساعة؟ » .

فأجابت:

« ما أحس شيئًا... »

ثم سكتت، كأنها تسلّمت سرًا لا يُباح.

عندها شعرتُ أنني أمام لغزٍ لا تحلّه العقول . إن هذا الصبي ليس كغيره، إن وراء اسمه ظلّ نبوءة، ووراء خطواته هاجسٌ يشقُّ الرمل ، ووراء ابتسامته سرٌّ يشبه وعد السماء.

مددت بصري بعيدًا، نحو الأفق الذي تتلوّى فيه الكثبان تحت شمس المغيب، وقلت:

يا مجاشع، هل تظن أننا نعيش على أعتاب زمن يتبدّل فيه وجه الأرض؟

بل أنا على يقين، يا حارث. إن لمحمد شأنًا، ولليهود والنصارى علمًا به. أما نحن، فإن قلوبنا وحدها هي الشاهد.

ثم غشينا صمت طويل، صمت يشبه صلاة في جوف الليل. كان قلبي يحدّثني أن هذا الطفل، الذي يلعب الآن بين رعاة الغنم في بني سعد، يحمل في جبهته سرًّا أعظم من الأرض، سرًّا تخشاه الأمم وتترقب السماء ظهوره.

X

قد دنت الساعة.

الحمد لله.

وماذا تحين الآن؟

شعور غريب يتخلل أوصالي. كأن نورًا يخرج من أعماقي، يتدفق فيغمر الأرض من حولي، ويزيح الحجب عن بصري. أرى ما لم أره من قبل. قصور بصرى تتلألأ في أطراف الشام، شامخة كالأطياف، تلوّح بأبراجها ثم تخفت في البعيد. وها هي نار المجوس تشتعل، تلمع لبرهة، ثم تخبو وتنطفئ، كأنها تُعلن نهاية عهد وبدء آخر.

أرى قصرًا يتقوّض، شرفاته تتهاوى، وأعمدته تتداعى؛ إنه إيوان كسرى، ينهار في صمت يجلجل في داخلي. ثم تلك الفجوة الواسعة، تتخبط فيها الأسماك بين الطين واليبس، تتلوّى ثم تسكن. بحيرة ساوة جف ماؤها، وغار صوتها، ولم يبقَ إلا موت السمك في قعرها.

هذه العلامات؟ هذه العجائب؟ ما معناها؟ أهي رؤى أم حقائق؟ أهي بشارات أم محض سراب؟

جاءني الصوت رقيقًا، كنسمة تتسلل من عالم آخر :

ألم أقل لك يا آمنة؟ إنك تحملين في بطنك خير من خلق الله. آن للنور أن يخرج، آن له أن يضيء الأرض كلها.

ارتجفت، وتمايل قلبي بين الخوف والسكينة. كأن السماء كلها تتحدث إليّ، وكأن الأرض تتهيأ لاستقبال قدر لا يشبه ما عرف الناس من أقدار.

X

جلس عبد المطلب يروي لمجاشع بن عمير، وصوته مشبع بالرهبة واليقين:

« ذلك ما قصته آمنة لزوجتي سمراء. أما ما رأيت أنا بعيني وسمعت بأذني، فقد كان قبل أن يبشرني ولدي عبد العزى بوقت قصير. «

رفع حاجبيه، وتابع :

« كنت في ندوة مخزوم، والحديث بين القوم، فإذا بصخب عند باب المسجد. رأيت الناس يتدافعون حول رجل، يسألونه ويلحّون عليه. دنوت منهم، فقيل لي: إنه عمير بن سليط يقص خبرًا عجيبًا. شددت خطوي إليه، فما كان لي أن أترك مثل هذا الحديث يمر دون أن أسمع. «

ابتسم مجاشع وهو يقول :

« وما قال عمير ؟ أهو ممن يهوى المبالغة والنسج في الهواء ؟ «

هز عبد المطلب رأسه:

– « لقد رأيت صدقًا في عينيه لا يشبه لهو الرواة. «

X

كان عمير متعبًا من كثرة ما أعاد القصة على أسماع الناس، وقد التفوا حوله بشغف لا ينقطع. رفع يده كمن يريد أن يصدّ عن نفسه الإلحاح وقال ساخرًا :

« ويحكم، أما اكتفيتم؟ لقد حكيت عشر مرات حتى جفّ ريقي! «

ضحك شيبة بن ربيعة وقال:

« ويحك يا عمير، إن أسلوبك آسر، وحكاياتك كالنجم إذا أطلّ في الليلة الظلماء. زدنا يا رجل، زدنا. «

تنفّس عمير بعمق، ثم جلس على صخرة قريبة، وألقى نظرة نحو الأفق، كأنه يستعيد من هناك ما سيقوله:

« حسنًا ، حسنًا... اسمعوا للمرة الأخيرة. واعلموا أني لم أكن أعلم أن للّيل أسرارًا تخفيها عن النهار ، ولا أن للصحراء أنباءً لا تدركها المدن العامرة، حتى وقعت لي تلك الليلة. كنت عائدًا من الطائف إلى مكة ، والليل قد بسط رداءه، ولم يكن بي من الأمر شيء غير أن أصل. لم أحفل بريح ولا بظلام، بل واصلت سيري كعادتي. «

قال شيبة في اندفاع :

« أوَ لم يكن الطريق آمنًا؟ يسلكه الناس ليلًا ونهارًا ! «

أجابه عمير وهو يهز رأسه:

« بلى، هو آمن. غير أن ما اعترضني لم يكن مما يتصدى له لص أو قاطع سبيل. كنت أسمع وقع أخفاف مطيتي على الرمل، فإذا بجو غريب يلفّني، شعور مهيب لا يُعرف كنهه. حثثت ناقتي، فإذا بها تأبى الحركة، لا تقدم ولا تؤخر. وقفت كأنها تسمع ما لا أسمع، أو ترى ما لا أرى. «

سكت قليلًا، وكأن المشهد عاد حيًّا أمام عينيه، ثم أردف:

« وغشى الأرض نور عجيب، نور ليس من الشمس ولا القمر. والسماء يا شيبة! كأنها انشقت عن بحر من النجوم، تتلألأ كما لم أرها يومًا. لم تكن نجومًا فحسب، بل كأنها كائنات حية تتسابق وتتهامس. أهذه شهب؟ أهذه ملائكة؟ لا أدري. «

انحنى مجاشع نحوه، وعيناه تتقدان فضولًا:

« وما الذي سمعت؟ لقد قلت إنك لم تسمع مجرد صمت. «

أطرق عمير رأسه، وصوته يخرج كأنما يخشى أن يتهموه بالجنون :

« سمعت أصواتًا يا قوم. أصواتًا تتناجى من كل صوب، بعضها بالعربية، وبعضها بلغة لم أعرفها. لكنها جميعًا كانت تبشر بمولود عظيم. قال أحدهم :*أشرق النور في بطن أمه، واقترب خروجه إلى الدنيا* .وقال آخر :*طُويت صفحة الظلام، وجاء زمن النور*. «

ساد الصمت. لا أحد يجرؤ أن يضحك أو يستهزئ. كان في نبرة عمير صدق يخترق السخرية، ويمزق ستار الشك.

رفع عبد المطلب صوته وهو يقول بوجل :

« ما رأيته أنت، وما أخبرتني به آمنة، وما شهدت أنا... كلها حلقات في سلسلة واحدة. لقد آن أن ندرك أن الله يهيئ أمرًا عظيمًا. «

أطرق القوم رؤوسهم، وقد ثقلت في قلوبهم رهبة لم يذوقوها من قبل.

X

عادت آمنة إلى وحدتها، والأصوات ما زالت ترن في أعماقها. لم تعد تخشى ما يجري في بطنها، بل شعرت كأنها حاضنة لسرّ سماوي. سألت نفسها في حوار صامت :

« لماذا أنا؟ ما سر اختياري بين نساء قريش؟ أهو ابتلاء أم تكريم ؟ «

ورد عليها الصوت الخفي من جديد:

« هو تكريم وابتلاء معًا، يا آمنة. سيخرج من رحمك من يغيّر وجه الأرض، فلا تُجزعي، فإنك في حفظ الله. «

أغمضت عينيها، وابتسمت ابتسامة غامرة، كأنها تذوقت طعم القدر، وقبلت أن تكون من أدواته.

X

وهكذا ظل الليل في مكة يروي أسراره، وظلّت القلوب بين حيرة ويقين. النجوم ما زالت تتسابق في السماء، كأنها تسجد في انتظار ذلك النور الذي وُعدت به الأرض.

ها أنا لا أعود أدري، يا شيبة؛ رأيتها تندفع كما لو يسوقها من لا أرى، في كبد السماء، ثم سمعت همهمة لا أفهم منها شيئًا، ثم استبانت الأصوات، فسمعتُ من بعيد صوتًا ينهض داخل صدري وكأنه يقول: «

انظروا إلى السماء؛ فما أراها كعهدنا بها من قبل. النجوم تتألق بقوة لم نر مثلها قط، تستبق بعضها بعضًا... «

فرد عليه آخر بدهشةٍ مختلطة بالخوف: « بل هي تدنو من الأرض؛ تكاد تحرقنا. تصعيدٌ في السماء عسير! «

تنهد عمير، كأنما ينفخ الهواء في صدرٍ امتلأ به، ثم قال بنبرةٍ تفيض رهبةً وسؤالاً: « وإلى أين نصعد نحن؟ أما تسمعون؟ ها هي السماء تهبط إلينا... «

قطع الكلام همسٌ آخر مشوب بالخوف: « والبقاء على الأرض عسير... حتى أشباحنا الخفية، التي لا تراها العيون، تكاد تذوب في هذا الضوء الشديد. ماذا يجري؟ النجاة! النجاة! إن للغيب لعجبًا... «

ثم تكرر المنادون بصوتٍ صارخ يتقاطع مع وقع القلب: « في الأرض لحدثٌ، لم تسقبله من قبل. النجاة! النجاة! «

« يا لها من رؤيا! « هتف أحدهم، وكأن النجوى خلعت عنه رداءها النهائي.
فأجابه عمير بعدما ضعفت مناطره وسكن وجهه لهول ما رآى: « رؤيا؟ لا والله ما هي برؤيا، يا عبد المطلب. لقد رأيت كل شيء كما أراكم، وسمعت كل شيء كما أسمعكم. «

صمتت المُجموعة للحظة، وكأن الكلام يحتاج إلى إذنٍ من السماء لتجد طريقه إلى أفواههم. ثم سأل أحدهم ببرودٍ يُخفي سراجَ شَكٍّ قديم: « ثم ماذا؟ «
أغشى عمير الصمت على حاله، كأنما انتُزعت منه الحياة انتزاعًا، ثم مسّه بردٌ غريب فارتعش، ففاق وتدارك سيره، وأبلغ مكة. «

ابتسم أحدُ الحاضرين بتثاقل وسخريةٍ مرحةٍ لم تستطع أن تخفي أسفه، وقال: « لقد أخذك النوم فعبثت بك الأحلام يا عمير... أو مر بك جماعة من جنِّ الصحراء، هذا كل ما حدث. «

لكن عمير لم يبتسم، كان في عينه ضوءٌ آخر؛ قال بهدوءٍ حازم: « لقد طلبت أن أحدثك فحدثتك. «

انبلج عبد المطلب في الكلام، وهو يعيد ترتيب خيوط ما رآه وأثره في نفسه: « وما عدتُ إلى ندوةِ مخزوم حتى جاءني ولدي عبد

العزّي يبشرني بمولد محمد. وإنّي أعجب لسؤالك هذا عن ما داخلني من رؤيا آمنة، وحكاية عمير بن سليط. «

ضجَّ الجوُّ بصوت مجاشع وهو يردع الكلمات بنبرةٍ حادةٍ مُتهكِّمةٍ: « وما أحسبك أجبتني عن سؤالي، يا عبد المطلب. ألم يداخلك من ذلك شيء؟ سقوط شرفات قصر كسرى، جفاف بحيرة ساوة، بشرى الملكين لأمه، عجز جن الصحراء عن التصعيد في السماء لمعرفة أخبارها — كل هذا يحدث في ليلة ولادة محمد. «

تنهد عبد المطلب، وظهر على وجهه مزيج من الاطمئنان والعجز: « يا مجاشع، ما وراء سؤالك هذا؟ «

أجاب مجاشع، وهو يلمّ شعث فضوله:

« وراءه أن ولدك محمد ليس كغيره من الولدان. «

انفلتت من عبد المطلب ضحكةٌ قصيرة، مشوبة بتواضعٍ وذاكرةٍ غامضةٍ: « ما جئتُ بجديد. لقد كنت أعلم قبل ولادته أنّ له شأنًا، وإن كنت لا أعرف كنه هذا الشأن. «

سأله مجاشع باندفاعٍ لا يخلو من قلقٍ أبوي: « وكيف كنت تعلم؟ أأفضت إليك علاماتٌ غير هذه التي تكلمنا فيها ؟ «

رد عبد المطلب بصوتٍ ينقش على حجر الحيرة: « أجل، يا مجاشع. لكن دعني أسألك، بربك: هل تخشى على محمد شيئًا؟ «

بارتجافٍ باردٍ في صدر مجاشع، قال موجزًا: « أجل. «

تفحص عبد المطلب ملامح صديقه، ثم نَفَس في صدره ريح تحذيرٍ كأنها قادمةٌ من جبّارٍ لم يرشُد بعد: « من ؟ «

رد مجاشع متهدجًا، وكأن الاسم يذيب ورق قلبه: « اليهود. «

ارتعش لفظ « اليهود « في الندوة، وأحدث صداه موجاتٍ من الصمت. ثم قال عبد المطلب بصوتٍ طفحته الخشية: « وهم؟ والله لقد خوفني منهم ورقة بن نوفل. يا مجاشع... عد إلى أرضكم في بني سعد، وارجع بولدي. «

أنفاسُ الحاضرين تلاطمت، وكأنهم يقفون على حافة مفترق طرق. فأجاب مجاشع بوقارٍ مستجمعٍ لقوةٍ قديمة: « أتحسبنا يا عبد

المطلب لا نقوى على حمايته؟ نحن أقوى على ذلك من سوانا؛ فلا يجسر اليهود على دخول مكة. «

ثم أضفى لهجةً أخيرة صارمةً ومطمئنةً: « اذهب الآن، ولا تبق في أرضكم إلا بقدر ما يتجهز محمد للعودة معك. «

سكنت الكلمات، لكن في الهواء بقي شيءٌ من النيران والنجوم؛ كأن حضور مولدٍ جديدٍ قد حزَّ في صدورهم علامة لا تُمحى. تبادلوا النظرات، وتساءلوا بلا كلمات عن معنى الرؤى والحدوث والأرواح التي تسبح فوق رؤوسهم. في داخله، أدرك كل منهم أن العالم الذي عرفوه على عهدٍ قد شارف على التبدل: أن في السماء خبرا، وأن في الأرض حدثًا لم تعرفه الأمم من قبل.

تلك الليلة، بينما كان الضحى يتثاءب على أطراف الفجر، بقيت العاصمة الصغيرة موصولة بجذرٍ سري؛ جذور من نورٍ وخوفٍ وأملٍ — ما بين أن يحفظوا الولد ويدافعوا عنه، وما بين أن تُقبل السماء عليهم بوعدٍ أو امتحان. ولم يكن في الحوار آنئذ سوى ظلٍ واحدٍ يلوح: أن الخيط الرفيع بين الغيب والكون قد انكشف، وأن لكلِّ أمةٍ فجرها، ولكلِّ فجرٍ قصة لا تكتمل إلا بحضور الرجل الذي سيأتيه الناس يجرون وراءه أحلامهم وآمالهم، ويبنون من حوله صروحًا من نور أو حجارة.

X

عاد **مجاشع بن عمير** من مكة مسرعاً، وقد بدا على ملامحه أثر القلق الذي حمله من مجلسه مع عبد المطلب بن هاشم، جدّ الصبي الذي تتناقل الأخبار حوله همساً وخشيةً. كان الليل قد أرخى سدوله على أرض بني سعد، لكن قلب مجاشع كان يضجّ بأسئلة لا يهدأ لها بال.

استقبله **الحارث** بن رفاعة وهو يقول في استغراب دهشة:

عجباً لك يا مجاشع! جئت من مكة لتوك، ولم تنل حظك من الراحة، ثم تريد أن تعود إليها من فورك؟ أي سفرٍ هذا الذي لا يترك لصاحبه نفساً يلتقطه ؟

أجابه مجاشع بصوت يختلط فيه الحزم بالوجل:

ما جئتُ إلا بأمر جدّ محمد. قال لي :

:اذهب على عجل، ولا تلبث في أرضكم إلا قدر ما يتجهز الصبي للعودة معك.

سأله الحارث وقد انعقد حاجباه:

وأين هو الآن؟

خلف ذاك الكثيب، يلعب مع أترابه.

شهق مجاشع وقال بحماس و بحرارة:

ويحك يا حارث! ألم أحذرك من أولئك الأحبار الثلاثة الذين يدورون حول أرضنا كالذئاب الجائعة؟ كيف تركته يلهو وحده مع الغلمان؟

ابتسم الحارث في محاولة لطمأنة صديقه:

لا تخف يا مجاشع، ما كنت لأغفل عن محمد. ثم إنه ليس وحيداً، فمعه زوجي حليمة ترعاه.

لكن مجاشع ضرب الأرض بقدمه وقال في انفعال:

امرأة؟! وماذا تفعل امرأة إن باغتها أولئك الأخابث؟ اليهود قتلة الأنبياء، لا يهدأ لهم بال إن لمحوا نوراً يلوح في طفل. اذهب الآن و ائت به، وجهّزه للسفر، فلا بقاء له في هذه الأرض بعد اليوم.

اعترض الحارث بنبرة حزينة:

يا مجاشع، أتريد أن نعيد محمداً إلى أهله، فتغادر البركة أرض بني سعد؟ لقد أظلتنا سنين من الخير منذ وطئت قدماه أرضنا.

بهذا أمرني جده، ولا رأي لي أمام أمر عبد المطلب.

إنك والله تخاف مما لا يخيف.

بل إنك تجهل مكر اليهود. اذهب وعد بمحمد، لا أبا لك.

X

طريق العودة إلى مكة

يحكي الحارث لابنه فيما بعد:

لم يكن لنا بد من الرضوخ لما طلبه جد محمد. لكني لم أُسلمه لمجاشع وحده، بل خرجنا جميعاً معه.

ويتابع حديثه قائلاً :

كنا نسير تحت لهيب شمس لا يرحم، ومع ذلك ظلّت سحابة بيضاء رقيقة تسير فوقنا كأنها تحرسنا ، و تظلّلنا في كل خطوة. كنتُ أعجب لها، وتعجب زوجي حليمة، كيف تلحق بنا حيثما اتجهنا !

ضحك مجاشع وهو يومئ برأسه نحو الصبي:

غرتك نفسك يا حارث ! أتظن أن هذه السحابة خلقت لنا ؟ والله ما أرسلها الله إلا لمحمد وحده.

تأملتُه حين قال ذلك، فوجدت في عينيه يقيناً لا يتزعزع. هناك في داخلي ، كنت أعلم أنه محق، لكني خفت أن أُسلم نفسي تماماً لهذا اليقين. فما أكثر ما يخدع المرء قلبه ، وما أصعب أن يقف على حدود الغيب .

بين الأم وابنـها

بلغنا مكة، والوباء يفتك بأهلها فتكاً ذريعاً. لم نكد نصل حتى اندفعت آمنة بنت وهب **إلى ولدها تحتضنه بحرارة، وتغسل وجهه بدموع الفرح . كان الصبي لم يتجاوز الخامسة، ومع ذلك بدا في عينيها كفتى قد نهض لحماية أمه، يقبّل يديها ووجهها بحنو عجيب.**

قالت آمنة وهي تمسح دموعها:

يا ظئر، ما طلبتُ إليك أن تأتيني بولدي رغم شوقي إليه، فلمَ جئتِ به في هذا الوقت والناس يفرّون من مكة خوفاً من البلاء ؟

أطرقت حليمة برهة ثم قالت :

يا سيدتي، ما فعلتُ ذلك إلا بأمر جده عبد المطلب.

نظرتُ إلى حليمة وهمستُ في أذنها:

ويحكِ، لا تحدثيها بأمر اليهود.

لكن آمنة التقطت الهمس بعين أم لا يغيب عنها شيء ، وقالت بقلق:

بمَ تتناجيان؟ أ حاق بولدي ما تخشون عليه ؟

ارتبكتُ ثم أسرعت أقول :

لا والله يا بنت وهب. لكن عبد المطلب رأى أن محمداً قد أقام في أرضنا خمسة أعوام، وحان له أن يعود ليشب بين قومه. هذا كل ما في الأمر.

ابتسمت آمنة وفي عينيها دموع لم تجف بعد :

إن كان هذا أمر أبيه وجده، فما لي إلا الرضا. لكن اعلموا أنني ما ذقت فرحاً قط مثلما ذقته اليوم وأنا أضمه إلى صدري.

X

هكذا عاد محمد إلى مكة ، لكن القصة لم تنتهِ . ففي قلب كل من عرفه في أرض بني سعد بقي شعور غامض ، مزيج من الفخر

والرهبة ، من الحب والقلق . كانوا يدركون ولو في أعماق وجدانهم أنهم عاشوا سنوات مع طفل ليس كبقية الأطفال.

قال الحارث وهو يسترجع تلك الأيام:

ما كان لنا أن نحيط بحقيقة هذا الصبي ، لكن كل ما حوله كان يشي بأن في قلبه سراً لا يملكه سواه . نحن قوم نعرف أن للقدر خطوات ، لكنه في محمد كان يمشي بخطوات أسرع من الزمن نفسه.

عجباً للأقدار، كيف تجمع بين الخوف والرجاء في قلب واحد !

قالت آمنة ، أم الطفل المبارك :

« ما طلب إلينا عبد المطلب أن نعيد محمداً إليكم إلا خشيةً عليه من أمرٍ أشدّ من الوباء الذي ينتشر في مكة. أصدقيني القول يا حليمة. «

رفعت حليمة رأسها ، وفي عينيها نور يقينٍ لا يزول:

« والله يا سيدتي، ما نحن بدافعين عنه إلا بأرواحنا. ولكننا أطعنا رغبة جده ، وأنت تعلمين أن أرضنا من أجدب أراضي العرب ، لا زرع فيها ولا ضرع. غير أنّه ، مذ حلّ بيننا، تبدل وجه الأرض. كانت غنمنا تروح علينا شباعاً لبناً، فنسقي ونشرب، حتى صار أهل القوم يقولون لرعيانهم:

'أسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب'، فإذا سار محمد بين المراعي، عمّ الخير حيث خطا. «

ابتسمت آمنة ابتسامة مغموسة بالدمع، وأجابت:

« هو البركة بعينها. «

وتابعت حليمة، كأنها تستعطف قلب الأم:

« ها هو بين يديك قد شبّ شباباً لا يشبه شباب الغلمان ، قد غلظ عوده ، واشتد بنيانه ، وصار أفصح فتياننا لساناً وأصفاهم بياناً. فدعيه لنا عاماً أو عامين، نحميه من وباء مكة، ونصونه بما استطعنا. «

لكن الأم قالت بصرامة المحبة:

« ما عدت أقوى على فراقه . سأذهب به إلى أخوالي من بني النجار في يثرب، فهناك يجد دفئاً آخر من رحم القرابة. «

صحا الحارث، وقد اضطرب قلبه:

« يثرب ؟! كلا، سيدتي. إلا يثرب ! «

نظرت آمنة في دهشةٍ وقلق:

« ويحك يا حارث! أتخشى على ولدي وهو في كنف أخواله؟ ما بالكما تخفيان ما يريب؟ أصدقاني، فما عاد في قلبي متسع للشك. «

تنهدت حليمة وقالت بصوتٍ مترددد:

« نخشى عليه يهود، سيدتي. ما من أرض في الجزيرة حفلت بهم كما حفلت يثرب. نخاف أن تلتقط أبصارهم فيه شيئاً، فهم أدهى الناس وأخبثهم. «

ردّت آمنة، كأنها تذود عن قدر ابنها باليقين:

« لا تخافوا. أتدرون ما قيل لي يوم ولدته ؟ لقد جاءني من قال *يا آمنة، إن الله قد عصم ولدك من الناس جميعاً، فلا تخافي عليه الأحداث* .فاطمئنا، فهو محفوظ بعهد السماء. «

سجد الحارث باللسان قبل الجسد:

« الحمد لله، الحمد لله . لكن دعيه معنا حتى ينجاب عن مكة وباؤها، فنبقى في جوار الحرم يوماً أو يومين، ثم نعود به إلى أرضنا. «

ابتسمت آمنة بعينين دامعتين:

« أبقياه إذن، حتى تشبع عيناي من النظر إلى وجهه، وتطرب أذناي من سماع حديثه العجيب. «

X

قال الحارث وهو يستعيد ذكرى الأيام:

« عدنا به إلى أرضنا، ولم يكن ما قالته آمنة عن فصاحته مجرد حنين أمٍ مولعة بولدها. لقد شهد له الناس جميعاً بالفصاحة منذ طفولته. كان عليماً بلهجات القبائل، يختار من كل لهجة أجملها، ومن كل أسلوب أوضحه، حتى غدا البيان على لسانه كالماء الزلال. كان إذا سأله أبو بكر عن سر فصاحته، أجابه :

أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر. «

ثم سكت قليلاً ، قبل أن يستطرد:

« وبعد أن عدنا به إلى أرضنا بشهر أو شهرين، وقعت المعجزة التي شهدها القوم جميعاً، والتي حاول اليهود والنصارى إنكارها . زعموا أننا اخترعناها على الله اختراعاً. وكان أول من صاح يكذبنا رفاعة بن التابوت، أشرس يهود خيبر. «

سألته المرأة في لهفة:

« وما الذي جاء برفاعة إلى أرضكم، وهو من عظماء يهود خيبر؟ «

أجاب الحارث:

« جاء، لعنه الله، يتقصى الحقيقة. كان قد بلغه خبر المعجزة، فجاء يفتش بعين الحسد والريبة. «

تدخلت حليمة ، وقد ارتعش صوتها:

« أذكر ذلك اليوم جيداً . لم يكن رفاعة يسأل بلسان مستفسر، بل بلسان متهم. كان كمن يفتش عن دليلٍ يطمس به نور الحق. «

قال الحارث:

« سألني عن الطفل، عن ملامحه، عن أخباره بيننا، ثم سأل بلهجة متحايلة:

« هل وقع لكم معه أمرٌ عجيب ؟ «

' لقد أراد أن يستدرجنا لننطق بما سمع من إشاعات. فأجبته بالحقيقة: نعم، وقعت معجزة لم تخفَ على أحد. عندها تغيّر وجهه، وبدت عليه علائم الغيظ. «

قالت آمنة وكأنها تسمع القصة لأول مرة:

« وكيف كان حالكم بعد أن رحل ؟ «

ردّ الحارث ببطء، كمن يستعيد ألماً قديماً:

« كان يشيع بين قومه أن ما روي عن محمد باطل. أراد أن يصرف الناس عن اليقين، وأن يزرع الشك في القلوب. لكن نور الحق لا

يُطفأ. لقد شهد القوم بأعينهم ما لم يستطع إنكاره ، فبقيت حجته عرجاء ، وصوته مردوداً عليه. «

X

ساد صمت عميق ، كأن الزمن توقف بين الحاضرين . آمنة كانت تتأمل في وجه ابنها ، الذي كان يلعب في طرف الدار غير مبالٍ بما يخطط له الكبار من حوله.

نظرت إلى حليمة والحارث، وقالت بصوتٍ يختلط فيه الحزم بالدمع:

« أنتم تخافون عليه من اليهود ، وأنا أخاف عليه من الدنيا كلها. لكني أعلم أن الله لن يتركه ، ولن يخذلني فيه. لقد كان في قلبي منذ حملته نوراً لا يبهت ، وكأن السماء أودعتني سراً يفوق قواي على حمله. «

اقتربت حليمة، وأمسكت بيدها قائلة:

« سيدتي، هو أمانة في عنق الدنيا كلها، لا في عنقك وحدك. نحن ندرك أنه ليس كالأطفال. ثقي أن الله اختاره لأمر عظيم، وما نحن إلا شهود صغار على بداية الحكاية . «

قال الحارث وقد أطرق رأسه:

« إنما نخشى من عيون الحسد ، ومن مكائد القلوب السوداء. أما السماء فقد تكفلت به ، ولا راد لقضائها » .

رفعت آمنة بصرها إلى السماء وقالت :

« اللهم اجعل من هذا الغلام رحمة للعالمين ، كما بشّرني قلبي يوم ولدته. واجعل صدور الحاسدين تتفتت أمام نورك ، فلا يضرّه حاسد ولا عدو. «

وفي تلك اللحظة، كان محمد يضحك ضحكة صافية، كأنها وعدٌ قادم لا يعرف الخوف، يملأ البيت أملاً، ويزرع في القلوب يقيناً أن الغيب يحمل لهذا الطفل ما لا يقدر البشر على تصوره.

X

المعجزة في أرض بني سعد

لم أرَ في الجمع محمداً!

صرختُ في وجل: «أسرعي يا حليمة، أسرعي... أين الصبي المبارك؟ ما الذي جرى له ؟«

ارتجف صوت حليمة وهي تنادي ، وكأن الفاجعة وقعت على قلبها: «ويحنا! خطفه اليهود«!...

فشهقتُ في ألم، وصرختُ بكل ما تبقى في صدري من رجاء:

«يا عبد الله ! يا عبد الله... أسرع! أبتاه ، أسرع ، لو تعلم ما الذي حدث لأخي محمد«!

فقال عبد الله وهو يلهث بين أنفاس متقطعة :

»أجل، يا أبي ، لقد رأيتُ بعيني ما يفتت القلب. أسرعوا ، فقد حملوه إلى الجبل.«...

ويمضي الحارث في حديثه :

»أسرعنا نحو الموضع الذي أُخذ إليه عبد الله مع بقية الصبية ، فإذا بمحمد قائم، ممتقع الوجه، ولكن... أي عجب! على قسمات وجهه الوسيم سكينة، وفي عينيه هدوء يبعث الطمأنينة في الفؤاد. ارتمت عليه حليمة تبكي، وضممته بين ذراعيّ، ثم سألنا عبد الله عما جرى، فقال:

كنا نلعب ونركض، فإذا برجلين يظهران لنا في ثياب لم نر مثلها من قبل، لا تشبه لباس العرب ولا زيّ اليهود ولا مسوح النصارى. تقدما إلى محمد ، وأخذاه من يده، ثم أضجعاه على الأرض.«

صاحت حليمة، وقد بدا الذعر في صوتها :

»أضجعاه؟ ماذا تقول يا عبد الله ؟«

قال عبد الله، وعيناه تتسعان من أثر المشهد:

»أضجعاه، ثم شقّا صدره... واستخرجا قلبه«!

صرختُ في وجهه غير مصدق :

»إنك لتهذي يا عبد الله ! لعلهم من سحرة اليهود، أتراك تظنهم بشراً من الناس؟«

فقال عبد الله بإصرار» :

لا، والله ما هذيتُ. لقد أخرج أحدهما من قلب محمد علقة ، وقال: هذا حظ الشيطان منك يا محمد. ثم غسلا قلبه وجوفه في طست من لؤلؤ، يضيء حتى كاد ينير الجبل من حولنا، ثم أعادوه كما كان. وبعدها مرّر الرجل يده على صدره، فعاد مكانه كأن لم يُشق قط<

ارتجفت حليمة وقالت مذهولة :

« أي سرّ هذا ؟ أي قدرة لا تدركها العقول ؟«

لكنني صرختُ كي أقطع خيط الرعب الذي اجتاح نفوسنا:

»لنعد به، لنأخذه بعيداً من هذه الأرض الغريبة... هذه أرض مسحورة! كيف يشقون صدره ثم يقوم بيننا صحيحاً سوياً، لا جرح يؤلمه ولا دم يقطر منه؟«

غير أن عبد الله، وهو يصرّ على قوله ، صاح:

»والله ما كذبتُ، وما رويت إلا ما رأيت! اسألوا الصبية، فقد شهدوا ما شهدت، وسمعوا ما سمعت. بل اسألوا محمداً نفسه، فما عهدناه كاذباً قط.«

يقول الحارث بصوت مرتعش :

»اقتربتُ من محمد وسألته ، فاكتفى بابتسامة هادئة، وأومأ برأسه موافقاً لما قاله عبد الله . فازدادت حليمة رهبة، وضمت الصبي إلى صدرها . ثم كشفت عن بطنه ، فإذا بخط طويل يمتد من صدره إلى بطنه ، كأثر جرح قديم ، لكنه كان بارداً ساكناً لا وجع فيه ولا ألم. مددت يدي ألمسه ، فلم أشعر بحرارة جرح ولا نبض نزف ، كأنما طُبع عليه ختم سماوي لا يراه إلا من قُدّر له أن يشهد.

وحين قصصنا القصة على أمه آمنة فيما بعد ، أنكرت أن يكون قد بدا مثل هذا الأثر على جسده من قبل. فتعجبتُ وقلت:

»أما خشيتم ، يا سيدتي، أن تتهمونا بالتقصير في أمر ولدها ؟ نحن نروي أمراً لو سمعه الناس لقالوا:

هؤلاء أوهموا أنفسهم، أو اختلطت عليهم العقول.«

فقال الحارث بصوت يجلله اليقين:

» لم نخَش شيئاً على محمد ، كما أن أمه لم تخش عليه بعد أن سمعت الطيف يوم مولده ، يقول لها :

لقد عصم الله ولدك من الناس ، فلا تخافي عليه الأحداث . نحن كنا شهوداً على ما لا يدركه فهم البشر، ولا تسعه قوالب العقل، وإنما تشرئب له الروح كأنها تبحث عن معنى الغيب في ثوب محسوس.«

سكتت لحظة، ثم سألتُه باستغراب :

»ولماذا أعدتموه إلى مكة ؟ ألم يكن بينكم في بني سعد أأمن وأرعى ؟«

فأجاب الحارث وقد ارتجف صوته كمن فقد أعز الناس:

» أرسل إلينا أعمامه يطلبون رجوعه إلى أهله وقومه . لم يكن لنا أن نمنع عنهم ما طلبوا ، فرجعنا به إلى مكة، وقلوبنا تنزف ألماً لفراقه. حتى إن زوجي حليمة مرضت عاماً كاملاً بعد عودتها، كأنما فُرغت حياتها من روحها حين غاب محمد عن صحبته.«

X

في تلك الليلة، اجتمعنا حول النار نتحدث، غير أن الصمت كان سيد المكان. لم يكن حديث عبد الله مجرد وصف لواقعة ، بل كان سؤالاً مفتوحاً على معنى الحياة كلها. أكان ما رآه مجرّد رؤيا انكشفت للطفولة ؟ أم كان سراً من أسرار الغيب شاء الله أن ينكشف لطفل صغير ليكون شاهداً على عهد جديد للبشرية ؟

قال عبد الله، وقد ثبت بصره في السماء :

»أيها الأب، أما ترى أن ما حدث لمحمد ليس من فعل البشر، ولا من سحر اليهود، بل هو أمر أزليّ، يهيّئ الله به قلباً ليحمل ما لا تحمله القلوب؟«

فأجبته وأنا أحاول أن أستوعب عمق قوله :

»لكن يا بني ، كيف للطفل أن يدرك ما لم يدركه الشيوخ ؟ كيف يطيق الصغير ما تعجز عنه الكبار ؟«

قال :

» ربما لأن قلب الطفل أنقى، لا يحجبه الطمع ولا يثقله هوى الدنيا. محمد ليس كالأطفال ، إنه يحمل سرّاً أكبر من جسده ، وروحاً أوسع من أرضنا كلها.«

عندها أدركت أن ما شهدناه لم يكن مجرد حادثة عابرة، بل كان علامة. علامة تقول لنا:

إن للغيب لغة لا تُفهم بالعقل وحده ، بل بالروح حين تنفتح على سرّ الله في خلقه.

وأنا أروي هذه القصة الآن، كأني ما زلت أسمع صرخة حليمة، وأرى ابتسامة محمد، وألمس ذلك الأثر الممتد على صدره، خطاً نورانياً لا يُمحى ، كأنه كتاب مكتوب على جسده، يقرأه كل من يبحث عن اليقين.

لقد كان محمد بيننا طفلاً لا يزال يلعب ويركض ، لكنه كان أيضاً بوابةً إلى غيبٍ لا تدركه الأبصار. ومنذ تلك اللحظة أيقنت أن هذا الصبي المبارك لن يكون شأنه كشأن الناس ، بل شأنه شأن النور حين يشق الظلام.

الصبي العظيم

عاد الصبي العظيم من أرض بني سعد إلى مكة ، إلى تلك القرية التي نطق بها حينما طُرد من أرضها:

«إنك والله لأحب أرضٍ إلىّ، وأحب أرضٍ إليّ... ولولا أن أهلَك أخرجوني منك ما فارقتك».

عاد صبياً، جفراً في ملامحه، صارماً في خطاه، يطلب فيها أصحاباً جددًا بعد أن فارق رفاقه في أرض بني سعد. لم يجد إلا حمزة عمه، ذاك الذي اشتهر بين رفاق اللعب بقوة الذراع وحدة اللسان عند الغضب.

تذكّر الصبي حديثه القديم مع حمزة حين هداه إلى الحقّ، فتكلم عنه الناس:

«إن رسول الله ﷺ في صباه قليل الضحك، نادر الغضب، فإذا تكلم انصت الرفاق لكلامه».

وكان الصبي مقبلاً على العبث، فينزوي تحت نظرة عاتبة لا تقبل التساهل، فتغيّب روحه عن اللعب وتعود إلى دار الأم.

كانت أمّه ملاذه في تلك الأعوام؛ آمنة التي لم تعرف للفرح طريقًا بعد موت زوجها عبد الله. لم تُعدُّ كما اعتادت القرشيات، لا زينٌ ولا تبرّج، بل صار عالمها كلّه مُتمثّلًا في هذا الفتى الرقيق. كانت ترافقه إلى قبر الزوج، فتجلس تبكي، وتعود حاملة في صدرها مزيجًا من الحزن والأمل. وفي ذات مرّة ذهبت ولم تعد: فارقت الحياة ووضعت في ثرى بني النجار قرب قبر أبيه. عاد الفتى يتيماً، وحيدًا محتضنًا لصاعقة اليتم التي سقطت عليه.

آلت كفالة الصبي إلى أبي طالب، ولم يكن أكبر إخوته سنًا. وهناك، تكلم الزبير طالبًا كفالته، فبلغ الكلام مسامع أبي طالب، الذي ردّ

بهدوء وقلب موجوف: «أصابتني القرعة يا زبير، فماذا يغضبك بعد؟» لكنّ الزبير لم يقبل إذ اعتقد أن القرعة ظلمته.

قال أبو طالب متذكّرًا:

«أحسب إنني أخطأت حين رضيت بالقرعة... عجبًا! نقترع على أمرٍ لا يختلف فيه قرشيان ؟ والله لا أقبل أن يكفل محمدًا ابن أخي أحد سواي ؛ أنا أكبر منك سنًا يا أبا طالب.«

ردّ الزبير بنبرة غضبٍ مختلجة باللوعة:

«لقد أخطأت إذ تنازلت عن حقي في كفالة محمد.«

فابتسم أبو طالب ابتسامةً واثقة، ليست ازدراءً ولا تحديًا، بل قناعةً نابعة من المسؤولية:

«ما لك فيما هو خيرٌ من القرعة يا زبير؟ ندعو محمد ونخيره؛ فإن أختارك فما أملك أن أرغمه على ما لا يحب».

فكّر الجميع، ثم نودي: « ناد محمد « .

حينما دخل الصبي دار أبي طالب، صار المنزل قرية صغيرة من الوجوه والهمسات، كلها تُحاكم قلبه الصغير. رأى زوجة أبي طالب فاطمة ، التي قبلته وكأنها كانت تعرفه منذ أزل. صارت الدار ملاذًا جديدًا ، ووجد فيها دفءَ أمٍ ثانية ، وعودًا إلى لغة الحياة بعد فترةٍ امتدت فيها صرخات الحزن في صدره.

لكنّ ما يلفت النظر أكثر من كل ذلك ليس مجرد تبدّل المنازل والأسماء، بل هو المشهد الداخلي للصبي: تلاطمٌ بين الذكريات والالتزامات، بين الضعف والتمثّل بالكرامة. كان يستمع إلى كلمات الرجال في مجلس القرشيين، وإلى همسات النساء في الدار، فينحت منها أسئلة تختبئ تحت الجلد:

ماذا يعني أن يكون للإنسان بيتان، أمٌّ وأبٌ، وآخرون يأخذون عنه الرعاية؟ وما قيمة القرعة حين يتعلق الأمر بقدر إنسان؟

ذات مساء، جلس الصبي بين ظلال الدار يتأمل وجه حمزة ، وحين تنبّه إليه حمزة رمى إليه النظرة التي كانت كافية لردّ اللعب ، لكنه لم يلامس لسانه عن الكلام ؛ فقد أحسّ في الصبى شيئًا يختلف عن رفاق الطفولة:

وقارٌ قبل السنّ.

تعلّم الصبي أن يسمع قبل أن يتكلّم، أن يزن الكلام كما يزن العطار أدواءه ، أن يطيل النظر في الأشياء قبل أن يحكم عليها. وفي صمته كانت فلسفةٌ تتكوّن: فلسفة صغيرة عن الوحدة والقدرة على حمل صمتٍ أكبر من الجسد.

ومع مرور الأيام ازداد عنه الناس الإعجاب بوقاره؛ لم يزل قليل الضحك، نادر الغضب، فإذا تكلم انصت له الحضور. أصبح الصبي نافذةً تطلُّ على عالمٍ داخليّ غني ، عالم يقرأ الأشياء قراءةً أخرى:

لا يرى العالم مجرد ميدان لألعاب الصبية بل مختبرًا لصقل النفس.

عند كل مفترق طريق، كان يتساءل: هل يُقاس الإنسان بمكانته في النسب أم بعمق روحه ؟ وهل يكفي أن تسند إليه قرعة لتختار له من يربيه، أم أن التربية علاقةٌ حية تحتاج إلى حب واعٍ وصبرٍ طويل ؟ كانت الأسئلة تنتظره في الصباح والمساء، تُحفر فيه كآثار الريح على الحجر.

وذات يوم، في مجلسٍ من مجالس قريش، شاهد أن بعض الرجال يفرّقون بين الإنسان ومكانته كأنهما شيئان متقاطعان لا رابط بينهما. فَأَفَقَهُ ذلك وأعاد إليه تساؤلات الليالي: هل القوة في اليد أم في القلب؟ وهل تَنعكس النفوس على مجتمعاتها أم العكس؟

والقصة هنا ليست في من فاز بحقّ الكفالة ، ولا في من قَبِلَ القرعة ، بل في كيفية تشكّل روحٍ في حضرة الشدائد. ففي دارٍ امتدت فيها العيون والنوايا ، نما لصبيٍ، لكنه نما بداخلٍ أعمق، عصر في الصمت، وصار ذا تفكيرٍ حاد، وعيٌ يسبق سنّه.

نهاية هذا الجزء لا تعني نهاية الحكاية، بل فصل من فصولها؛ فصلٌ يعلّمنا أن البيت قد يتبدّل، وأن الجراح قد تترك أثرًا، وأن التربية ليست مجرد صُنع أماكن، بل صنعَ عقولٍ وقلوب. وعندما يختار الزمن رجلاً صغيرًا ليكون علامةً، لا يكفي أن يملأ الناس فراغًا باسمٍ أو نسبٍ؛ فالناس يختبرون الحقائق في صمت الأيام، ويعرفون من يحمل في صدره منارةً للنفس.

أبو طالب والزبير:
حوار في انتظار النبوة

كنا نعلم جميعًا أن **أبا طالب بن عبد المطلب** هو الذي كفل محمداً بعد موت أمه ، فضمّه إلى قلبه كما يضم الوالد ولده ، وربّاه في بيته ، وجعل له في نفسه منزلة لا يرقى إليها غيره. وكنا نعلم أن أبا طالب وقف مع النبي قبل البعثة وبعدها مواقف يحمدها له التاريخ ، ويشهد بها المسلمون جميعًا ، كما حمدها له ابن أخيه العظيم. غير أن ما لم يكن محسومًا في ذلك الزمان ، وما ظلّت القلوب تتنازعه، هو **إسلامه** نفسه : أكان مؤمنًا بما يتناقله الناس عن نبي العرب المنتظر ، أم كان يرى الأمر حديث أساطير ورؤى غامضة تتردّد على ألسنة الأحبار والرهبان؟

في إحدى ليالي مكة الساكنة ، اجتمع **أبو طالب** مع ابن أخيه **الزبير بن عبد المطلب** في فناء الدار . كانت السماء تتلألأ بنجوم صافية ، والهواء محمّل بعبق الحجاز . جلس الرجلان على حصير من ليف ، وأمامهما قناديل الزيت تلقي ظلالًا متراقصة على الوجوه ، كأنها تكتب أسرارًا فوق الجدران.

قال أبو طالب وهو يبتسم في شيء من التهكّم:

نبي من العرب ؟ ما زلت يا زبير تشغل نفسك بهذه الأخبار التي تأتيك من كل ناحية !

ابتسم الزبير بدوره ، ولكن في عينيه بريق قلق :

ليس الأمر لعبًا يا عم . لقد سمعت ذلك في كل رحلة لي ، حين أسافر بتجارتي إلى الشام أو إلى اليمن. رهبان الصحاري الذين يقطنون مشارف المدن ، في بصرى والحيرة، يتكلمون في هذا ، ويقولون :

إن علامات كثيرة تشير إلى أن نبيًّا قد خرج ، أو أنه يعيش بيننا في مكان من جزيرة العرب لا يعرفه أحد.

قهقه أبو طالب، وانحنى إلى الوراء مسندًا ظهره إلى الجدار:

كأنك تصدّق أوهام ورقة بن نوفل ! وماذا عن زيد بن عمرو بن نفيل ؟ وماذا عن أمية بن أبي الصلت ؟ أليس هؤلاء جميعًا يزعمون لأنفسهم نصيبًا في هذه النبوءات ؟ .

تنهد الزبير كأنه يجرّ وراءه أثقال الشك :

زيد كان يبحث عن الحق ، يتنقّل بين الأديان ، ويستبطن الكتب القديمة ، علّه يجد نورًا يقيم عليه الحجة . وأما أمية... فقصته أعجب!

ضحك أبو طالب ضحكة ساخرة:

أمية ؟ ذاك الرجل لا يقول لأصحابه شيئًا إلا إذا لعبت الخمر برأسه. أنسيت ما حدث له في عكاظ العام الماضي ؟ كان يركب ناقته ، وينشد أبياتًا من شعره ، يزعم فيها أن النبوة تلوح له . فضحك الناس من تخليطه ، فلما ترنّح وسقط عن ناقته علموا أنه ثمل لا يعي . ثم لما أفاق قال :

« لا تنسبوا إليّ ما قلت اليوم، فإنما أجراه شيطان الخمر على لساني! « .

فهل يُرجى من مثل هذا نبيٌّ يُهتدى به ؟

أطرق الزبير لحظة، ثم رفع رأسه وعيناه تلمعان بإيمان غامض:

مع ذلك، والله يا أبا طالب، يخطر لي في قلبي أن هذا النبي المنتظر سيكون من **ولد عبد المطلب** .

أبو طالب، وفي نبرته خفة ومزاح :

أتراك تظن أنه أنت يا زبير ؟ .

هز الزبير رأسه في وقار:

كلا . لا أحس ذلك في نفسي. لكنني أذكر يوم ذهبنا مع أبينا عبد المطلب ، رحمه الله، إلى **صنعاء** في رحلتنا التجارية...

هنا تذكر أبو طالب شيئًا ، فانتصب في جلسته :

كأنك تعني ما قاله الراهب النصراني يومها؟

أجل.

ولكني لم أكن حاضرًا. كانت تلك أول رحلة لي مع أبي ، فانشغلت ببيوت صنعاء وأزقتها ، وتركتكم.

ابتسم الزبير، وراح صوته يتهدّج بذكرى بعيدة :

أما أنا فما كنت أفارق أبانا عبد المطلب لحظة . وقد سرنا يومها في طرق غريبة لنشهد قصر غمدان ، أعجوبة الدنيا في اليمن . رأيت بأم عيني عشرين طابقًا تعلو السماء ، وكل طابق يتلألأ بزخارف لا تكاد العين تستوعبها . في القصر مائة سارية، وقد زُيّنت بتهويلات وتماثيل تُدهش كل ناظر . وقفنا أمامها مبهورين ، أفواهنا مفتوحة كالأطفال . لكن أبانا كان في شغل آخر . كان يرقب شيئًا ما ، أو قل : أحدًا ما.

قال لي همسًا :

يا زبير ، أرأيت هذا الراهب ؟ راقبه بعينك ، ولا تدعه يشعر أننا نعلم أنه يتبعنا.

فسألته بدهشة :

أي راهب ؟ .

ذاك النصراني الذي يسير خلفنا منذ البارحة . كأنه لا يريد أن يبتعد عنا.

وما الذي يريده منا ؟ .

أطرق عبد المطلب طويلًا، ثم قال كمن يكلّم نفسه :

لا أدري . ولكني أظن أن عنده سرًّا ، وربما علمًا بكتاب قديم يذكر شأنًا عظيمًا لواحد من نسلي.

هنا توقّف الزبير عن الكلام ، وبدت على وجهه علامات غموض ، كأن الذكرى تستعيده من أعماق بعيدة.

سأله أبو طالب وهو يرمقه بعين فاحصة:

وما الذي رآه ذاك الراهب ؟ أو ماذا قال ؟ .

أجاب الزبير بصوت خافت هامس ، كمن يبوح بسرّ ثقيل :

رأى محمداً وهو صغير. اقترب منه، وحدّق في عينيه طويلًا، ثم قال لأبي :

« إن لهذا الغلام شأنًا عند الله . إن فيه علامات النبوة . «

ارتعشت يد أبي طالب ، غير أنه أخفى ارتجافه بابتسامة ساخرة :

نبوة؟ ومن يدري؟ ربما كان الراهب يهذي أو أراد أن يستميلنا بكلام معسول. أتعلم يا زبير؟ إن هذه الأخبار كلها أشبه بظلال على جدار كهف ، نراها ولا نعلم أهي حقيقية أم خيالات.

تأمل الزبير السماء الصافية ، وقال في نبرة تأملية :

لكن، يا أبا طالب ، ألا تشعر أن هذا القدر يقترب منّا شيئًا فشيئًا ؟ إن مكة ليست كالأمس ، كأنها تنتظر حدثًا عظيمًا. حتى الكعبة ، حتى حجارتها ، كأنها ترتجف بشيء نجهله.

سكت الاثنان لحظة طويلة . لم يعد يسمع سوى أنين الريح وهي تمر بين الأزقة ، وصوت القناديل المتراقصة . كان في صمتهما صراع داخلي ، بين **الإيمان والشك** ، بين **التاريخ والأسطورة** ، بين **القدر والإرادة البشرية**.

قال أبو طالب أخيرًا ، بصوت فيه شيء من الفلسفة :

يا زبير ، البشر يطلبون دائمًا مخلّصًا ، نبيًّا ، أو قائدًا يحررهم من قلقهم . لكن السؤال الذي يحيرني : هل ننتظر أن ينزل الوحي على بشر مثلنا ، أم أن في داخل كل واحد منا نبيًّا صغيرًا يبحث عن خلاصه ؟ .

أطرق الزبير في تأمل عميق ، وأجاب كأنه يحاور نفسه :

ربما يكون النبي حقًّا هو ذاك الذي يوقظ في الناس ما خمد في قلوبهم من نور . وربما يكون الله قد شاء أن يكون من آل عبد المطلب.

عندها نهض أبو طالب ، وألقى على كتفيه برده ، كأنه يريد أن يطوي الحديث كما يطوي الليل ستاره . ثم قال:

كفانا حديثًا عن الغيب يا زبير. إن كان لهذا القدر سرّ ، فسوف يكشفه لنا الزمن . والزمن ، كما تعلم، لا يُستعجل.

وبقيت القناديل تتمايل في صمت الليل، وكأنها تحفظ سرًّا لا يُفصح عنه إلا عند أوانه...

X

كان الليل يوشك أن يمد عباءته السوداء على رمال البطحاء ، والقافلة ساكنة بعد عناء السفر . نيران صغيرة تشتعل هنا وهناك ، تنفث دخانها الخفيف في فضاء ساكن يقطعه بين الحين والآخر نباح كلاب

بعيدة أو صهيل فرس ضال . جلستُ إلى جوار أبي طالب ، أرقب قسمات جدنا عبد المطلب، وقد بدا أكثر مهابة تحت ضوء القمر ، كأنما يوشك أن يتجسد فيه سرّ قديم لم يبح به الزمان بعد.

هنالك، وسط هذا السكون المهيب، رأيت رجلاً يتردد علينا منذ الصباح ، عيناه متوهجتان بقلق غريب ، يتتبعنا من بعيد ، يقترب تارة ثم يبتعد أخرى ، كأنما يسوقه قدر لا يملك له دفعاً . كان رجلاً من الأحبار ، طويل القامة ، أشيب اللحية ، تلمع عيناه بوميض من يقينٍ غامض ، أو جنونٍ جميل.

ولم تمض إلا ساعة حتى دخل علينا خيمتنا ، كمن لبّى نداءً لا يستطيع أن يتجاهله . انحنى قليلًا ، ثم قال بصوت يقطر بالرهبة :

أيها الشيخ الجليل ، ممّن أنت ؟ .

ابتسم عبد المطلب ابتسامة ممزوجة بالدهشة والوقار :

عجباً لك أيها الحبر ، أتبعتنا حيثما رحلنا ، تنظر إلينا كأنك تبحث عن شيء في وجوهنا ، ثم تسأل: « ممن ؟ « أليس الأجدر أنك قد سألت فعرفت ؟ .

قال الحبر بانفعالٍ حاد :

لا ضير في أن أسمع منك مباشرة ، فالكلمة إذا خرجت من فم صاحبها تثبت وتستقر . ممّن أنت ؟ .

قال :

من قريش .

قال الحبر مسرعاً:

ومن أي البطون؟

قال:

من بني هاشم.

ارتجف الحبر ، وتهللت ملامحه ، كأنما عثر في هذه الكلمة على حل لغز ظل يؤرقه دهراً . جلس بيننا وقال بصوت تغشاه مسحة يقين :

بيت سيد بني هاشم ! أيها الشيخ ، إني رجل نصراني، قرأت التوراة والإنجيل ، وورثت ما دونه الأحبار والكهان والرهبان من أخبار الأمم . ورأيت في تلك الكتب ما يدفعني لأن أطلب إليك أمراً عجيباً :

أن تأذن لي بأن أنظر في بعضكم.

ابتسم عبد المطلب في مرحٍ حذر ، وقال :

افعل ما بدا لك ، ما لم يكن عورة.

اقترب الحبر ، وانحنى على عبد المطلب ، ثم مد يده في خشوع ، وقال :

أذن لي أن أنظر في أنفك.

ضحك عبد المطلب ضحكة قصيرة وقال في دهشة:

في أنفي؟! افعل إن شئت.

فحص الحبر منخريه ، ثم ارتد إلى الوراء وقد ارتجفت يداه ، ثم تمتم بلهجة يقطر منها الخوف والإجلال :

أشهد أني رأيت في إحدى يديك ملكاً ، وفي الأخرى نبوّة !

تجمدت كلمات الرجل في الفضاء ، كأنها نبوءة انبجست من غيب سحيق.

فع عبد المطلب رأسه ، وقال في هدوءٍ مهيب :

ملكاً ونبوة معاً ؟ أي حديث هذا ؟ إنك تدهشني أيها الحبر.

رد الحبر بعينين تلتهبان يقيناً:

وأنا لا أقل عنك دهشة ! لكن دهشتي مستندة إلى كتبٍ لا تكذب . إن النبوءات تقول إن في قريشٍ بيتين يتجاذبان هذا السر : بني هاشم، وبني زهرة .

قال عبد المطلب في صوت متردد ، وقد لفّه صمتٌ طويل :

لست أدري. أنت أعلم بما تقول.

هنا تدخل أبو طالب ، وصوته يحمل قلق الباحث عن سر يثقل صدره :

تعني إذن أن الموعود قد يكون في بيتين من قريش: هاشم أو زهرة ؟

هز الحبر رأسه :

أو في رجلٍ واحد يجمع بينهما معاً.

عندها قال الزبير ، وعيناه تتألقان كمن لمح بارقة في الأفق :

محمد ! أبوه هاشمي ، وأمه من بني زهرة . أفتراه هو ؟

ساد الخيمة صمتٌ غريب ، لم يقطعه إلا همهمة الريح وهي تعبث بأطراف القماش. كأن الكلمات نفسها أبت أن تُقال صراحة ، خشية أن تثقل على الروح بما لم تستعد له بعد.

قال الزبير بعد برهة :

كأنك نسيت ما قالت سودة كاهنة مكة يوم عرس عبد الله بن عبد المطلب ، حين نظرت إلى آمنة وقالت :

« يا بني زهرة، فيكم نذيرة تلد ونذيراً، وما أراها إلا هذه المرأة « .

أطرق أبو طالب، وصوته يخرج خافتاً كمن يحدّث نفسه أكثر مما يحدّث الآخرين :

عبد الله الذبيح، الذي لم يكد ينجو من الموت ، حتى اتخذ له زوجاً لم يعش معها إلا قليلاً، ثم رحل عنها كما يرحل الغرباء . لم يعد إليها كما يعود الأزواج ، بل ترك وراءه بذرة سرية عظيمة ، كأنما خُلق ليؤدي دوراً وحيداً ثم ينتهي.

وآمنة، تلك الفتاة الطاهرة، التي لم توجد في عالمنا إلا لتحمل محمداً، وتؤدي أمانتها ، ثم تمضي حيث مضى زوجها... كوكبان التقيا للحظة ، ثم افترقا في الأبدية ، ليضيئا سماءً أخرى غير سمائنا.

هنا أطرق الجميع ، وسرى في القلوب شعور غريب بين الهيبة والخوف . كأن الزمن نفسه قد توقف ليستمع إلى هذه الكلمات.

اقترب الحبر ، ويده ترتجف وهو يقول :

إنكم لا تدركون ما تحملون بينكم. إن العالم بأسره ينتظر، والسماء تتهيأ ، والأرض حبلى بلحظة فاصلة . سيولد طفل يبدد ليل الوثنية ، ويعيد رسم خريطة الروح الإنسانية.

قال عبد المطلب في صوتٍ متهدج ، وقد بدا عليه ثقل ما سمع:

إن كان ما تقول حقاً ، فقد اختارنا الله لأمانة لا طاقة للبشر بها.

أجابه الحبر، وعيناه تشعان ببريق بعيد:

الأمانة لا تختار أحداً عبثاً. إنما هي قدر يسعى إلى صاحبه، مهما حاول أن يفر.

وتلاشت كلماته في ليل الصحراء، كأنها صدى قادم من غيبٍ بعيد، ليظل صداه معلقاً في وجداننا، يذكرنا أن القادم أعظم من أن تستوعبه العقول في لحظتها تلك.

X

في صباحٍ أيلوليٍّ رقيق، حيث الهواء يصفو على جدران مكة القديمة وتدندن فوقها رياح الصحراء بأغنيةٍ منسية ، جلس الزُبَيْرُ وابو طالب تحت ظلِّ نخلةٍ وحيدةٍ قرب دارٍ كانت تنهضُ على حافة سوقٍ يختلط فيه عطر اللبان بدخان المصانع الصغيرة . كان الزُبَيْرُ عيونَهُ مشتعلةً بأسئلةٍ تقضمُ لُبّه ، وأبو طالب يحملُ على جبينهِ ثقلَ سنواتٍ ورجاحةَ عقلٍ .

قال الزُبَيْرُ بصوتٍ يخالجهُ ارتعاش :

محمد ؟ محمد ملك العرب ؟

ثم عاد ، وهو يلمّ شتات الكلام :

ونبي العرب أيضًا.

تلعثمَ ابْنُ عمِّهِ، وابتسمتْ في وجهه ابتسامةُ إنسانٍ راكمتْ فوقَ شفتيه آلافَ أمواجِ الشكّ واليقين معًا :

لا تدخل هذه الأوهام في رأسي يا زُبَيْرُ ، لقد سربلتني بها حتى اضطربَ لها كياني كله.

ابتدأَ الحوارُ كقطعةِ موسيقيٍ قديمةٍ ، تتصاعدُ ثمّ تنحسر ، متركِّزةً في سؤالٍ ينهشُ اللحمَ من العظم

يا أبا طالب.. لو كان هو نبي العرب وملكها ، فهل تدينُ له وتتبعه ؟ .

نهره أبو طالبُ قائلاً بهدوءٍ لا يُخفيهُ صخبُ الأيام :

يا زُبَيْرُ، وماذا نفعلُ بدينِ عبدِ المطلب ؟ ماذا نفعلُ بدينِ قريش ؟ .

أجابَه الزُبَيْرُ ، وكلماتُه قد اتَّقدتْ بنارٍ قديمةٍ:

أما أنا، فو الله لو كان محمدٌ هو النبيُّ المنتظر... وإنّي عشتُ حتى يظهرَ لأقبضَ سيفي ، وأدافعَ عنه.

ثم هامتِ الكلماتُ فوقَ أفقِ الزمنِ، وكأنّها تبنيُ مشهداً مستقبلياً وماضياً معاً. لكنّ الزُبَيْرَ لمّا قال ذلك لم يَمُدَّ عمرُهُ لتشهدَ له الأيامُ . فقد مضى عامٌ واحدٌ فقط بعد ذلك الكلامِ ، وراحَ الزُبَيْرُ إلى حيث لا نسألُ ولا نُحْدِث . وربما ، أيضاً ، طردَ أبو طالبُ من صدرِه ما سُمِّيَ أوهاماً في ذاكَ اللقاء.

X

تمرُّ بنا ذاكرةٌ أخرى ، صورةٌ أكبر: حين خرجَ ابنُ أخيه محمدٌ إلى بلادِ الشام ، ومَرّ بصومعةِ راهبٍ نسطوريٍّ اسمه بحيرى. كانت الصومعةُ على الطريقِ بين يثربَ وبصرى ، وموقعُها كعينٍ تراقبُ كلّ قافلةٍ تمرّ . بحيرى لم يكن راهباً عادياً ؛ كان قارئَ نجومٍ في الكتب ، باحثاً عن علاماتٍ تقاطعتْ في نصوصٍ وقديمةٍ لتبشّرَ بمولودٍ يحمل صفاتِ صاحبِ الجملِ الأحمرِ الذي تُنبئُ به نبوءاتُ إنجيلٍ منسيّ.

جلسوا في الصومعةِ ثلاثةُ يهودٍ ، زَرِيرُ، دَرِيسُ، وتَمامُ ، يدخلون عليها بمدّ البصر وشمّ الرائحة الممزوجةِ من دهشةٍ وعدوانٍ. قال تمامٌ بحنقٍ وتموُّهٍ :

فأنت في هذه الصومعةِ، أيها الراهب الجليل، تترقبُ أن ترى من يزعمون أنّه سيكون النبيُّ العربيُّ المنتظر؟

أجابَ بحيرى، وكأنه يتكلمُ مع خمسةٍ وعشرين عاماً من الانتظارِ في جيبهِ :

أجل، وقد بلغَني أنّ قافلةً خرجت من مكة، فيها صبيٌّ يحملُ علاماتٍ إن صدقتْ، فليسَ عندي إلا أن أنتظرَ لقاءَه.

صمتوا قليلاً، ثمّ انهال السؤالُ كالمطرِ على سقفٍ متصدع :

فهل هم في الطريقِ إلى هنا؟

نعم، في الطريق.

تعجبَ الثلاثةُ، وأنتابَهم استغرابٌ أن الراهب لم يُبدُ أنَّهُ مُفاجأ برؤيتهم:

عجباً لكم، والله ما أحسبكم نزلتم بصومعتي إلا لعلمكم بأن قافلةً قد أقبلت...

هنا التقطت الأزمةُ أنفاسَها، وكأنّ الزمانَ يتلوى بينَ صفحاتِ كتابٍ قديمٍ، ولحظةُ القرارِ تتشكّل. سألوه عن شأنِ الصبيّ وما إذا كان سيُقتَلُ، فما كان ردُّ الراهب إلا ببرود:

إنني أترقّب مولده منذ عشرين عاماً. كيف أدعه يمرّ دون أن أتحقّق؟

قاطعَه تمامُ برعونةٍ تمرّ بمقاييسِ الدنيا :

تقتله؟ نقتلُ من قد يكونُ هو النبي ؟ ونحكُم يا معشرَ اليهود ؟ صدقٍ من يقولُ إنّكم تتربّصون به لتقتلوه.

ردّ عليهم بحيرى بنبرةٍ لا تختبئُ خلفها لعبةُ سياسةٍ :

إنّما نقتلهُ ليس لأنّنا نعلمُ يقيناً أنّهُ النبيُّ المنتظر ، بل لنكتمَ صهيلَ العربِ ؛ لئلا يقالَ إنّ اللهَ اصطفى منهم نبياً.

فأثار ذلك نقاشاً عميقاً عن نصوصِ الكتبِ ، عن أسماءٍ في صحائفٍ قديمةٍ تبدو كلوحٍ نُصِبَ على مسارِ تاريخٍ مستتر. قالَ أحدهم:

أليس في أوراقنا ما يلوحُ باسمِ أحمد؟

أجابَ بحيرى باتزانٍ:

قد تُشيرُ بعضُ الأوراقِ إلى صفاتٍ ومواصفاتٍ، لكنّ الاسمَ إرادةٌ إنسانيةٌ لا تُحسمُ إلا بلقاءِ العلاماتِ.

ثم اندلعتْ مناجاةُ الأسئلة حول أحوالِ الصبيّ: قيامُه وقعودُه، صَحوُه ونَومُه، قربُه وبُعدُه من أصنامِ قومه.

أجاب الراهب أن ما سمعهُ عن الصبيّ كان غريباً؛ فذُكر عنه أنه كان يقفُ عند الأصنامِ كأنّ شيئاً يحذّره، وأنّه سمع رجلاً يهمسُ له: «يا محمدُ، لا تمسّها .

هنا ارتعش الكلامُ في نفوسهم؛ إذ تبدّى للأذن ما بينَ خرافةٍ وإمكانية . تكمنُ قوة المشهد في التمازج بين اليقينِ والشكِّ، بين السياسةِ والخلاصِ، بين رغبةِ الهيمنةِ وبين توقُّعاتِ الناس.

المكانُ: صومعةٌ خشبيةٌ، نسماتُ الصحراءِ تتسلّلُ من شقوقها، شرفاتٌ تَرَى سفوحَ جبالٍ بعيدةٍ، وسماءُ الصباحِ تحملُ لونَ اللؤلؤِ المُطْفَأ.

الزمنُ: وقتٌ انتقاليٌّ ، حين تتحرّكُ الحضاراتُ وتتمازجُ المعتقداتُ ، وتتعالى أصواتُ البشرِ تسألُ: من يكتب التاريخَ؟ ومن يختارُ من يقود ؟ .

في هذا الحوارِ النفسيّ، يتحوّلُ كلُّ سؤالٍ إلى قرارٍ مؤجلٍ. الزُبَيْرُ يريدُ لصِهرِ السيفِ أن يقفَ دفاعاً عن مَنْ قد يكونُ منقذاً أو ربحاً للكرامة ؛ أبو طالب يفكّرُ في رابطةِ الدمِ والتقاليد ؛ وبحيرى يرى في كلّ علامةٍ تفصيل ذات وزنٍ في تفسيرِ العالمِ.

ولكنَّ القصةَ لم تنتهِ عند هذا الحدّ. ففي ذلك المشهدِ تُنْسَجُ مآساةُ الإنسان بين رغبةِ التحكمِ وخوفِ الفقدان ، بين الاعتقادِ الذي يرفعُ الناسَ إلى القممِ وبين السلطةِ التي تكتمُ الأصواتَ. تلك هي المفارقة:

أن يسعى النَفْسُ لحقيقةٍ تقودُهُ، بينما تُحاطُ الحقيقةُ بدَفّةِ مصالحَ لا تعرفُ المجدَ من الخسارة.

وهكذا يغلقُ الستارُ على المشهد، ولا يبقى إلا صدى الأصواتِ يتداخلُ مع قعقعةِ الأسلحةِ في السوقِ، ومع نباحِ الجمالِ في أطرافِ القافلةِ البعيدة. ترحلُ القافلةُ وتبقى الأسئلة ، تتكاثرُ كما تتكاثرُ ظلالُ النخلةِ مع لمساتِ شمسِ الظهيرة.

مؤامرة في صومعة الراهب

صومعة على أطراف الطريق

كانت الصومعة شامخة على ربوة صغيرة، يحيط بها سكون الليل ورهبة الصحراء . الأشجار القليلة التي تنبت حولها بدت كأنها حرسٌ صامت ، يراقب القوافل العابرة بين مكة والشام . وفي الداخل ، جلس الراهب **بحيرى** في مسكنه المتواضع ، يرقب الطريق الممتد كالثعبان في بطن الصحراء. كان قلبه مضطربًا ، إذ يعلم أن في هذه القافلة القادمة سرًّا سيغير وجه التاريخ.

خارج الصومعة، اجتمع ثلاثة من اليهود، يتبادلون النظرات القلقة . كانوا يترصدون قدوم قافلة قريش ، فقد بلغهم أنّ فيها غلامًا من بني هاشم ، يحمل بين عينيه ملامح النبوة.

قال اليهودي **تمام**، وهو يرمق الراهب بنظرة ماكرة :

« متى تتوقع وصول القافلة يا بحيرى ؟ «

ابتسم الراهب ابتسامة غامضة، وقال بثقة العالم المنتظر:

« قد حان موعدها ، وإذا بلغوا هذه الناحية ، فأغلب ظني أنهم سيستريحون عند تلك الشجيرات القريبة من صومعتي ، كما اعتادوا دائمًا. «

ردّ آخر اليهود في سخرية :

« وما يدريك أنهم سيقصدون هذا المكان ؟ « .

تنهد بحيرى ، ثم أطرق رأسه قليلًا و قال :

« لقد طال وقوفي هنا أترقب ، وأشهد أنني كلما سألت القوافل عن أخبار مكة سمعت عن مواليدها من الذكور ، وعن صفاتهم وهيئاتهم . أعلم أن في تلك الأخبار بشارات . «

X

جدل الأديان

لم يمهل تمام الراهب فرصة ليتابع ، بل قفز بسؤاله إلى ما يشعل صدره :

حدثنا عن صاحبك نسطاس، ذاك الرومي الذي افتتح حانة في مكة. بلغنا أنه مثلك يترقب هذا الغلام الذي تزعمون أنه نبي. «

رمقهم بحيرى بنظرة غاضبة، و قال :

« ما أبرعكم معشر اليهود في المراوغة ! تنكرون النبوة في العرب، ثم تتربصون بغلامٍ لم تروا مثله خوفًا من أن يكون هو النبي المنتظر ؟ لو كنتم على يقين من كذب ما نزعم، فما حاجتكم لهذا التربص ؟ « .

قهقه تمام ضاحكًا :

« لا نريد أن يطاولنا العرب برجل يزعمون فيه النبوة . فإذا قتلناه قبل أن يشتهر أمره ، كبتناهم إلى الأبد . لن يكون نبي من العرب يا بحيرى ، فدع عنك الأوهام . «

أخذ الراهب نفسًا عميقًا ، وكأن صدره يئن من وطأة الحقيقة ، ثم قال بصوت فيه حدة و سخرية :

« أما أنتم فأهل جدال و نفاق. قل لي يا تمام ، ما معنى هذا الذي جاء في كتابنا : » *ملكوت الله ينزع منكم، ويُعطى لأمة تحمل ثماره*«...؟ أليس فيه إشارة واضحة إلى أن الرسالة سترفع منكم وتُعطى لغيركم ؟ «

ارتبك تمام قليلًا ، ثم قال ببرود متعمد:

« هذا كلام زورتموه كما زور غيره . «

لكن بحيرى لم يمهله ، وأردف:

« وفي الإصحاح الثالث والعشرين» :*هوذا بيتكم يترك لكم خرابًا ، حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب* «.فمن تراه يكون هذا الآتي ؟ « .

قال تمام بتصلب:

« إن كان عيسى صادقًا – وما أحسبه كذلك – فالآتي بعده لا بد أن يكون من بني إسرائيل . «

ابتسم بحيرى ابتسامة المتهكم و قال:

« وهل غفلتم عن هذا النص» :*خيرٌ لكم أن أذهب ، لأنه إن لم أذهب لا يأتيكم المعزي أحمد، ومتى جاء يرشدكم إلى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل بما يسمع به ويخبركم به*«.؟ أيكون هذا أحمد منكم أنتم؟ كلا، بل من العرب الذين تحتقرونهم. «

X

حوار نفسي عميق

ساد الصمت لحظة، ثم رفع تمام عينيه نحو الراهب وقال بنبرة تتخللها الحيرة :

« بحيرى، لست غبيًا حتى لا أرى أن كلامك له وزن. ولكن قل لي: ما حاجتك أنت ، وأنت راهب نسطوري ، أن تؤمن بنبي يأتي من العرب ؟ أليس في هذا إلغاء لمعتقدك ؟ « .

أطرق بحيرى رأسه كأنه يخاطب نفسه :

« لست أبحث عن مجد طائفة ، ولا عن سيادة أمة. أنا أبحث عن الحق. الحق وحده ما يطمئن إليه قلبي ، ولو جاء على يد غلام قرشي. أما أنتم فمأساتكم أبدية ، إذ ترون الحق ولا تريدون الاعتراف به ، لأن قلوبكم أسيرة الكبرياء » .

اقترب منه تمام خطوة ، وصوته يخفت وكأنه يكشف عن صراع داخلي :

« وأنا أيضًا، يا بحيرى ، يؤرقني هذا الأمر. أخشى أن يكون ما تقول حقًا ، فأفقد ما عشت أدافع عنه. أخشى أن تنهار الجدران التي بنتها عقيدتي عبر السنين . «

أجابه الراهب بصوت عميق:

« من أراد الحقيقة فلا يخشى انهيار الجدران، لأن الحقيقة لا تهدم إلا الباطل. «

X

اقتراب القافلة

فجأة، قطع تمام الحديث وهو يشير إلى الطريق الممتد:

« انظر يا بحيرى! ها هي القافلة قد اقتربت من شجيراتك. «

هرع الجميع نحو فتحة الصومعة المطلة على الصحراء. الغبار يتصاعد ، وصوت الأجراس يرن في الفضاء ، والإبل تتمايل في صف طويل. في مقدمتهم رجل ذو وقار يحيط بالصبي اليتيم الذي يخطو بجانبه ، عينيه تلمعان ببراءة وعزم غامض. كان أبو طالب يحوط ابن أخيه محمد ﷺ بعناية الأب الحامي ، بينما بدا الغلام في هيئة أوسع من سنه ، كأن القدر قد رسم على ملامحه ملامح النبوة منذ الطفولة.

وقف بحيرى يحدق فيه، وقلبه يخفق بشدة. قال هامسًا :

« ها هو ذا، إنه هو. النور بين عينيه لا يُخطئه البصر. «

أما اليهود ، فقد تبادلوا نظرات القلق ، وتبدّى في عيونهم الخوف المكبوت. قال أحدهم:

« لو كان هذا الغلام هو الذي تبشر به كتبكم ، فلن يهدأ لنا بال حتى نقضي عليه . «

أمسك بحيرى بعصاه الخشبية ، ورفعها كأنه يحرس الباب ، وقال في نبرة حاسمة :

« ويل لكم إن حاولتم أن تمسوه بسوء. إن الله له حافظ، ولن تنالوا منه شيئًا « .

X

الفلسفة والقدر

انزوى تمام جانبًا ، وقد بدا على وجهه أثر صراع داخلي مرير. تحدث إلى نفسه بصوت مرتعش :

« أيكون الغلام هو القدر الذي طالما أنكرتُه ؟ أيكون التاريخ يسير في اتجاه لا سلطان لي عليه ؟ ما قيمة جدلنا إذن ، إذا كان الأمر محتوماً من السماء ؟ « .

اقترب منه بحيرى ووضع يده على كتفه برفق ، وقال :

« يا تمام، إن الحق لا يُقاوَم ، والقدر لا يُرد. من الحكمة أن ينحني الإنسان أمام التيار الإلهي بدل أن يغرق في مقاومته. «

رفع تمام عينيه نحو القافلة التي بدأت تقترب من الصومعة ، والعرق يتصبب من جبينه. أدرك أن لحظة الفصل قد حانت، وأن هذا الغلام الصغير يحمل معه رياح التغيير التي لن يوقفها أحد.

في تلك اللحظة، بدت الصحراء وكأنها تحبس أنفاسها. الغبار يعلو، الشمس تميل نحو الغروب ، وظلال الجمال تترنح على الأرض الممتدة. وفي قلب المشهد، يلتقي الماضي بالحاضر ، واليهود بالنصارى ، والجدل بالعقيدة، والإنسان بالقدر.

كان بحيرى يوقن أن عينيه وقعتا على خاتمة النبوات ، وكان تمام يوقن في أعماقه أنه أمام نبوءة ستزلزل كيانه كله ، حتى لو حاول إنكارها. أما الغلام القرشي ، فقد كان يسير بخطوات وادعة ، لا يدري أنه يحمل على عاتقه رسالة ستغيّر وجه التاريخ إلى الأبد.

الصبي العظيم عند بحيرى

أقبلت قريش بقافلتها ، فانحنت الإبل برفق وأنهكتها الرحلة، فانحطت تحت الشجيرات القريبة من صومعة الراهب بحيرى. ارتجفت وجوه اليهود الثلاثة ضجراً وخوفاً ؛ كانوا يرمقون الصبي بين أفراد القافلة بعين لا تعرف الراحة ، وامتقع ودَجْوُهم ، وارتعدت أطرافهم كما ترتعد أغصان الشجر في العاصفة الخفية.

تقدم الراهب بحيرى، وقد ارتسمت على محياه شماتة رقيقة ، وقال بصوتٍ يختلط فيه الاستهزاء والفضول :

«ما بالكم؟ أتعرفون ما يعتري المريض إذا أخذته الحمى؟«

رد زرير متمتماً بمرارةٍ مكبوتة:

« لا تسخر منا يا بحيرى. لا تسخر حين نرى عدونا بعينينا. الآن اعترفتم: هو عدوكم إذن «.

قال تمام ببرودٍ يُخفي اندفاع قلبه :

« إنما يهرف زرير بما لا يعرف.»

ثم نهضت في صدره موجة من الحيرة، فقد بدت له ملامح الصبي شيئاً آخر: لا طفل عادي، بل علامة تطرق أبواب العقل والقدر.

عاد الغضب يشتعل في صدغ تمام، فصاح:

«ويحك يا بحيرى! أي شاهد هذا؟ وما علم أخي زرير بهذه الأمور؟ أنت قد غرست في رأسه أن صبياً من قريش مبْيٍّ فحدث له ما حدث « !

التفت بحيرى نحوهما، وبدا كمن قرأ أثراً غامضاً في صفحة الزمن. قال بحزمٍ لكن بصوتٍ كأنه يحاول ترويض إحساسٍ مفاجئ:

والله لقد حدث لي ما حدث لكما حين رأيت هذا الصبي وشاهدت أول العلامات «.

ارتعد زرير وهو يشير إلى غيمةٍ رقيقة تسير فوق رأس الصبي: «هذه السحابة! هذه التي تسير أينما سار، وتقف حيث يقف؛ لا تبرح مكانها «.

ضحك تمام ساخطاً:

«أي هراء هذا يا زرير! إنما هي سحابة مارة«!

أشار الراهب إلى ظل الشجرة حيث جلس الصبي ، وقال هادئاً: «ها هو قد جلس تحت الشجرة. هل تنكر الآن حركات أغصانها؟«

صمت الجميع لحظة. بدت الأغصان وقد مال بعضها على ناحية الصبي فور جلوسه، دون أثر لنسيمٍ يحركها. رد تمام قائلاً بنبرة تصنع برهاناً:

«ليس هذا بفعل الريح، فليس هناك ريح. لا بد أن شيئاً آخر يحركها«.

سكت بحيرى للحظة، ثم تملكه تهكمٌ خفيّ:

«كأنها تحميه من الهيجان والحرّ. ترى، يا تمام، ألا تراه؟«

نهره تمام:

«كف عن هذا يا بحيرى ، ولا تهرف بما لا تعرف«.

ثم انفجر بحيرى في شماتةٍ مرة أخرى ، كمن أطلق صهوةً من حاكمٍ مسلوب الغضب:

«فما بالك قد ركبك الغضب منذ جاءت القافلة واعتراك ما يعتري المغيظ! والله لولا خوفي من أن يفتك هؤلاء الإعراب بك يا بحيرى لخرجت وقتلت الصبي مكانه «!

رد زرير بنبرةٍ ساخطةٍ لا تخلو من رهبةٍ:

«والله ما تخشى على هذا ، إنما تخشى أن يقتلك أهله إن هممت به شراً«.

تساءل آخر:

«هل ستدعوه إلى الصومعة يا بحيرى ؟«

قال بحيرى بصوتٍ هامسٍ يكاد يختنق حماساً:

«أجل، هو ومن معه. أريد أن أتثبت من كل علامات النبوة فيه. سنقتنص الفرصة إن غفل عنه أهله«.

أقبل به الغرور الشرير في صدره ، ثم قال في حدةٍ توشك أن تفضحه:

« والله لو شممت منك الغدر لفضحتك وأسلمتك إلى القرشيين. اصعدوا إلى الطابق الثاني من الصومعة ، وابقوا هناك حتى آتي بهم«.

X

وفي ظل تلك اللحظات المتوترة ، بدا الصبي كأنه غير مأسورٍ بالانفعالات البشرية ؛ عيونه كانت بنتاً بين الضوء والظل ، كأنها تعرف شيئاً لا يدركه من حوله. كان في جلوسه بساطةٌ تتحدى ذهول اليقظة ، وكأن الحياة فيها خيط رفيع من تأملٍ بارد.

توقف الزمن للحظة في تلك الزاوية من العالم: كانت الشمس تميل ، تسقط خيوطها الذهبية عبر شقوق الغيم ، والهواء يحمل رائحة القِطع والتمر. الصومعة، برخامتها القديمة وزواياها الطويلة ، بدت كأنها تجمع بين روح الصحراء وحكايات الرجل القديم.

تساءل تمام بصوتٍ كأنه يسأل نفسه قبل أن يسأل الآخرين:

« هل من حكمةٍ في هذا ؟ أم أننا نخدش صفحة القدر باحثين عن مجدٍ شارد ؟«

رد بحيرى مبتسماً نصف ابتسامةٍ فلسفية:

«الحكمة لا تأتي لمن يبحث عن المجد. وإنما لمن يقرأ العلامات. أنا لست حاجباً للسماء ، لكني رجل يعرف قراءة الحروف في الوجوه والرياح. أريد أن أطالع ما سيكشفه هذا الصبي عن نفسه«.

غاصت كلماتهم في بحر من الصمت ، ثم تقدم زرير خطوةً كمن يود أن يلمس شيئاً خارقاً ويخشى لُمسه:

« إن تظن أن هذا نبوءة ، فكيف نفسره ؟ إن كانت كذلك، فهل للنبوة وجه واحد ؟« .

أجاب تمام بتأملٍ:

«النبوة ، إن وُجدت ، ليست حكراً على شكل أو حدث. قد تأتي في لغةٍ غريبة ، وفي شخصٍ يبدو طفلاً بين الناس. لقد قرأت في كتبٍ أنّ العلامة قد تتخذ هيئة بساطةٍ عميقة ، وفيها مرآة لحقٍّ أكبر«.

تداخلت الأصوات، ودار في قلوبهم نقاشٌ عن الخوف والسلطة ، عن حكاياتٍ سُمعت في الصبا وعن الأساطير التي تكسو العالم بجلدها. كان في كلامهم حنينٌ إلى يقينٍ ، وخوفٌ من رفضٍ قد يثير غضب السماء أو غضب البشر.

ثم صاح بحيرى بصوتٍ أخفض يغلب عليه ندرة الصدق:

ليست العبرة بمن يُؤمن قبل أن تتضح الحقيقة ، والعبرة فيمن يصبر على رؤية ما سيأتي. إني أخشى على هذا الصبي من دوائر البشر ، لا من السماء. إن جاءت النبوءة فلربما كانت بدايةً لرحلةٍ لا تحتملها نفسه الصغيرة«.

تساءل تمام:

«أترى أن النبوءة تَجلب الفداء أم السقوط؟«

رد زرير بصوتٍ يكاد يكون دعاءً محاطاً بالدموع:

«قد تجلب ما لا نُحبّ أن نعرف. قد تفتح أبواباً لا تُغلق«.

X

حين غابت الشمس كلياً ، وانزلق الظلام كعباءة ناعمة على القافلة ، أخذ بحيرى يعدّ خطة دقيقة. لم تكن خطته مجرد فضول؛ كانت اختباراً فكرياً لأطروحةٍ يؤمن بها: أن العلامات تقرأ ، وأن العقول تستطيع أن تُبصر ما لا تُبصره العيون.

أرسل بحيرى رجاله بهدوءٍ إلى مخدع القافلة ليحضروه والصبي ومن معه. كان كل شيء محسوباً بدقة: خطوات خفية، أصوات مكتومة ، وأنفاس تكاد لا تُسمع. فتح باب الصومعة الخشبي بثقلٍ ، واطلع عليهما ، وقد بدا لهما الطابق العلوي كقفصٍ مكتمل البنيان.

جلس الصبي بهدوءٍ لم تُخدشه معرفة الخطر، وبدا وكأن فهمه للزمن مختلف؛ لا يهرب من أسئلة العيون ولا يلتفت لما يدور من حوله. نظر إلى بحيرى بعينين صادقتين ، وكأنهما تقولان قبل أن ينطق:

« ما الذي تريد أن تعرفه ؟ « .

قابل بحيرى ذلك الصمت بحجة الحكمة ، وبدا في كلماته أنه يجسد التلامس بين الشك والإيمان:

«يا صغيري ، أريد أن أعرف من أين أتيت، وما علمك بهذه السمات التي نراها«.

أجاب الصبي بكلمات قليلة، لكنها كانت ثقيلة كحكمةٍ سابقة :

« جئت كما ولدت. وما لي ولغة أقولها حول ما في صدري؟«

لم تستطع الأسئلة أن تقف عند ذلك الحد ؛ فكأن كل سؤال يُولد سؤالاً آخر ، وكل إجابة تطرح أمامهم مرآة جديدة جعلتهم يواجهون أقدارهم.

أخذ تمام يتلو بصوتٍ خارجيٍّ، لكن قلبه داخلياً يئنُّ:

«إننا نفعل هذا بدافع الخوف ، أم بدافع المعرفة؟«

كانت الإجابة في الهواء: الخوف والفضول توأمان لا ينفصلان. أما الصبي فبقي صامتاً، يراقبهم كما يراقب شجرةٌ قُدّرت لها أن تشهد عليهن.

X

حين انطلق الفجر، كان الصومعة قد حملت سرّاً صغيراً لا يريد العالم كشفه. خرج بحيرى من الطابق بشحوبٍ ، وعيونه مسودةٌ من لهيب التفكير. ارتسمت على محياه آثار النوم ولكنها لم تمحُ ما رآه ولا ما شعر به. قال لنفسه بصوتٍ كأنه عهد:

« إن العلامات ليست حكماً ، بل امتحانٌ ؛ والإنسان إن لم يرقّ إلى حملها فقد تتحمله الريح بلا شفقة ».

سارت القافلة في صمتٍ يقرب من الاحترام. ظل الثلاثة اليهود يرمقون الصبي كما يرمق المرء مخبئته الغامضة. وظل الصبي، بخفته وثقله معاً ، يترك وراءه أثراً لا يزول: أثر سؤالٍ حادّ عن معنى الحضور والقدر والاختبار.

وفيما تلاشت الصومعة خلف الأفق، بقي بحيرى ممتلئاً برؤيةٍ تصارع شكّه وإيمانه، فما بين الشماتة والخشية، وبين قفزة الألم ورفعة الروح، يولد الوعي الذي لا يرضى بالسطح.

X

خرج الراهب **بحيرى** من صومعته القديمة ، تلك التي تعانق جدرانها أشعة الشمس المائلة في الغروب ، وتتناثر على سقفها آثار السنين. بدا كأنه خارج من عالم آخر ، متوشحًا برداء نسكه ، يسير بخطوات مترددة لكنها واثقة، نحو القافلة التي أناخت تحت الشجيرات الوارفة ، حيث استراحت جمال **قريش** ، تتصاعد أنفاسها في هواء النهار المرهق. هناك ، كان يقف **أبو سفيان بن حرب** متصدّرًا القوم ، شامخ الرأس كعادة سادة قريش ، وإلى جانبه **أبو طالب** محتضنًا ابن أخيه، الصبي العظيم الذي يلمع في عينيه بريق غامض يثير في قلب الراهب ارتجافًا لا يعرف سره.

رفع بحيرى صوته مرحبًا:

يا معشر قريش، أهلًا بكم في أرضنا، أرض الشام التي طالما ضمّت قوافل تجاركم.

ابتسم أبو سفيان في خفة ، وقد اعتاد حوارات الراهب الغريبة ، وقال ساخرًا:

بحيرى الراهب النسطوري ! ما الجديد عندك هذا العام؟ أسئلتك التي نعرفها لا تنتهي: هل وُلد فيكم هذا العام ذكور ؟ ما أسماؤهم ؟ ومن أي بيت خرجوا ؟ أهذه عادة الرهبان أم هي شغفك وحدك؟

ثم التفت إلى أبي طالب وقال مازحًا:

« ألا ترى يا أبا طالب أن أسئلة صاحبنا هذا تشبه أسئلة نسطاس الخمّار حين يثمل؟

ضحك أبو طالب ، وأجابه:

« أنت أعلم مني بحديث نسطاس يا أبا سفيان. أما أنا فما عرفت طريق الحانات قط.

تدخل بحيرى، وفي صوته شيء من الجد يخالطه مرح مقصود :

« بل دعوا المزاح جانبًا. لقد أعددت لكم طعامًا اليوم، وأحب أن تحضروا جميعًا.

قهقه بصوت عالٍ، ثم تابع بنبرة ساخرة:

« نعم، طعامًا حقيقيًا يا أبا سفيان ، لا تظنني سأقدّم لكم شيئًا غريبًا لم تألفوه. أتعرفون ؟ لقد خطرت ببالي فكرة أن أطعم قريشًا كما يليق بسادتها ، لا كما يليق بالرهبان في صوامعهم.

ارتفع حاجبا أبي سفيان دهشة ، وقال متعجبًا

« لعمري! بحيرى يدعونا إلى طعام ؟ ما أعجب هذا ! لقد قطعت هذا الطريق عشرات المرات ، وجلست مع رفاقي تحت هذه الشجيرات مرارًا ، فما دعوتنا مرة واحدة إلى مائدتك! .

ابتسم الراهب ابتسامة ذات مغزى ، كأن وراءها سرًّا لم يُكشف بعد ، ثم قال:

« ما العجب في ذلك يا سيد قريش ؟ لست بخيلًا ولا شحيحًا، وإنما لكل أمر وقته. واليوم هو وقته. تعالوا جميعًا، صغيركم

وكبيركم، عبدكم وحرّكم، لا يتخلّف منكم أحد. فقد أعددت لكم طعامًا كثيرًا، ولست أحب أن يقال عني: إن بحيرى بخيل أو كزّاز.

ضحك أبو سفيان مرة أخرى ، وقال بنبرة تحذير مازحة:

« لكننا أكثر من عشرين رجلًا يا بحيرى، فلا تقل إنك لم تحسب حسابنا!

هزّ الراهب رأسه بثقة ، وعيناه لا تفارقان ذلك الصبي الذي يقف إلى جوار عمه:

« قد أعددت ما يكفيكم جميعًا... بل أكثر. لا أريد أن يتخلّف أحد، اليوم.

ساد صمت عابر، حمل معه شيئًا من الغموض. أحس أبو طالب ببرودة تسري في عروقه ، وتساءل في نفسه:

لماذا هذا الإصرار؟ ما الذي يريده الراهب حقًا؟ وهل لهذا الصبي الصغير علاقة بما يدبّره ؟

في تلك اللحظة، كان بحيرى يخفي قلقًا عميقًا خلف ابتسامته؛ كان يشعر أن هذا اللقاء ليس مجرد دعوة لطعام، بل هو فصل من قدرٍ أكبر، يوشك أن يكشف ستاره على مسرح التاريخ.

بحيرى والصبي العظيم

في صومعةٍ رتيبةٍ وسط حارةٍ قديمةٍ ، حيث تلتفّ الأشجار كحراسٍ صامتين حول بيتٍ عتيق ، جلس بحيرى الراهب محاطًا بدفءٍ من طيبٍ ولهجةٍ خفيفةٍ من نور الشموع. كان ليلٌ هادئٌ ، والهواء يهمس بأسماءٍ بعيدةٍ ؛ أمست الشوارع كأنها تحتفظ بسرٍّ لا تريد الإفشاء عنه. جاء إليه ضيوفٌ من قريشٍ ومن يهود الأيّام ، وجلسوا على مفارشٍ متواضعةٍ يتبادلون الأحاديث والأنفاس. وضعوا الطعام أمام بحيرى ، إلا أن اثنين اثنين ظلّوا خارج الدائرة: الصبي العظيم وعمه العبّاس، مع ثلاثةٍ من أصحابه.

كان الصبي قد بلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا في هيئةٍ شابٍ جلِدٍ ، لكن شيئًا في ملامحه أبعد ما يكون عن صغار السنّ؛ كان يحملُ رزانةً ووجهًا يكشف عن حكاياتٍ لم تروَ بعد. لم يشبّهوه بالصخب، فاختار البقاء مع صحبه تحت شجرةٍ قريبةٍ، كأنّها تظلل ذاكرةً لا يريد أحدٌ أن ينفض عنها.

صعد بحيرى إلى الطابق الثاني من صومعته، مطالعًا على ضيوفه من نافذةٍ صغيرةٍ. لم تكد تمرَّ لحظاتٌ حتى لاحت له من بين الظلال حركةٌ مريبة — زرير وصاحباه. همس زرير بحرصٍ لاذعٍ:

يا بحيرى، كأنما أدرك الصبي أنّك تعنيه بما أوَلمت لقومه فردّت دعوتك.

ردَّ تمامُ هامسًا:

و يحك يا زرير، دعه، فإنها الفرصة فيه؛ نتسلل إليه ونخطفه ممّن معه .

انتفت عن بحيرى كلّ حِجَبٍ. قال بصوتٍ لا يعلو كثيرًا ولكنه قاطع:

»والله إن شممت منكم الغدر فحذرت قومه. هل ستترك الصبي مكانه ولا تعرف لنا حقيقة حاله؟ ابقَ أنت وصاحباك هنا ودع الأمر لي«.

نزل إلى أضيافه، ومكث معهم قليلاً حتى كاد الطعام أن يبرد. سأل أبو سفيان بنبرةٍ فجةٍ تكاد تُخفي قلقَه:

»أين طعامك يا بحيرى ؟ لا نرى مما وعدتنا شيئًا«.

ابتسم بحيرى ابتسامةً هادئةً وقال:

»دعوتكم جميعًا، فبعضكم تخلف عن طعامي. ما تخلف غير ابن أخي، فهو لا يحب الصخب والهرج، واختَرَ البقاء مع أصحاب تحت الشجرة. والله لا تذوقوا طعامي حتى يأتي ذلك الصبي ومن معه ويجلسون بيننا«.

قال أبو طالب موجهًا:

»يا أبا سفيان، اذهب إلى ابن أخيك محمد وأخيك العبّاس وكلمهما بالحضور«.

وجاء محمد ، وجلس بين الناس ، يأكل معهم ، ولكن العيون لم تزل عليه. لاحظه بحيرى تارة بعد تارة ، ينظر في تفاصيل جسده بخشوعٍ ناعم ، وكأنَّ كلّ حركةٍ له عنده علامة.

انقضى السمر ، وخرج الصبي من الصومعة ، فتغلغلت خطواتُه في الهواء كأنّها حديثٌ مع الماضي. لحق به الراهب بحيرى تحت الشجرة ، فاخْتلى به ساعةً من زمانٍ — ليست بالساعات التي نحسبها، بل بمدىٍ داخليٍّ اختصر فيه التاريخ.

عاد بحيرى إلى حيث زرير وصاحبيه ؛ ارتعد زرير في لهفةٍ متعجِّبةٍ:

»أهو هو؟«

أجاب تمام بعدما كُفَّتْ مقلتاَه تأملًا:

»لا تمني نفسك بما يكون يا زرير«.

قال بحيرى بعد ذلك بنبرةٍ تمزج اليقينَ بالخوف:

»والله ما أحسبه إلا هو. قد سألته عن أشياء فأجابني بما كنت أتوقع أن يجيبني به«.

التفت زرير مقضيًّا حاجته من السخرية والشك، وسأل بحميةٍ:

»ألا تراه لا يحلف باللات والعزى يا تمام؟ يبغضها. ألم نقرأ في كتبنا أنّ كف عن ذلك؟ عمَّ سألتَه يا بحيرى؟«

أجاب تمام بتقطيعٍ حياديٍّ: »سألته عن أشياء كثيرة: عن نومه، وهيئته، وأموره. أخبرني بكلماتٍ رقيقةٍ واضحةٍ، لا غموض فيها ولا إبهام. ووافق ذلك ما عندكم من صفته؟ كل شيء، كل شيء«.

ثم قال بحيرى بحضورٍ يضغطُ على الأفواه من داخله:

»وخاتم النبوة بين كتفيه؟ هذه هي الصفة التي له في كتبنا«.

صمتت الأصوات قليلاً، ثم نفَخَ تمام نَفَسَه من بين أسنانه وقال نادِبًا:

»ويحنا، ويحنا... الآن اعترفت؟«

تحوّل التجاذبُ إلى جلبةٍ من الرهبة ؛ أصواتٌ تأتي من أعماقِ كلِّ حاضرٍ: هل هذا نهاية قدرٍ أم بداية مشهد؟ تنفّست الهمسات في أروقة العقل:

»يا بحيرى، دعنا نقتله؛ إنّه هو الذي ستكون نهاية اليهودية والنصرانية على يديه. بل هو الذي سيُكمل الناموس... هو الذي سيُكمل الشريعة. بل لابد لنا معشر يهود من قتله«.

تارةً تبدو الهواجسُ هكذا: إذا ظهرت الحقيقة فهي تهدِّد مناصبَ من صنعوها بحثًا عن أمانٍ زائفٍ. لكن في صدرِ بحيرى ثمة تقاطعٌ آخر؛ نظرةُ المُؤمن ليست ترفًا، ولا هي فتنةً لتصدّعِ البشر.

قال بحيرى بحزمٍ لم يُقْصِدْ به التفرُّدَ أو النفي:

»والله لو مسه شرٌّ وهو في ضيافتي لفضحتكم معشر اليهود في الجزيرة العربية كلها«.

لم يكن تهديدًا فحسب ، بل كان امتحانًا للضمير: كيف تتصرّف أخلاقًا حين يكون الضيفُ مهدَّدًا؟ كيف تزن النفوس بين خوفِ المستقبلِ ومنطقِ القتل؟ أم أنّ ثمنُ البقاء على الميثاق أعلى من أي خشيةٍ دنيوية؟

إنها أسئلة فلسفية قصيرة تتحوّل إلى أمواجٍ طويلة على ساحل الذاكرة. ففي ذلك المشهد تلتقي الأجيال: شابٌّ يحملُ دعوةً ما زالت تنبئ بصمت، وشيخٌ يتلقى العلامات ويتساءل بين الإيمان والواقع، وناسٌ يختارون الأمن عبر الإطفاء المباشر للشمعة.

عاد الصبيُّ إلى حيث جلَس، وجلس بين أصحابه كأنما لم يُسأل عن شيءٍ، ولكنّ صمته كان أبهى وأبلغ من أي جواب. تردّدت في الهواء كلمات بحيرى الأخيرة:

«ما أحسبه إلا هو.» كلمةٌ تلقي بثقلها على القلوب، وكأنّ الزمان يترنح قليلاً قبل أن يستقيم.

في تلك اللحظة، وفي دهشةٍ لم تُخفِها الظلال، بدا أن كلَّ واحدٍ من الحاضرين يرى نفسه في مرآةٍ مختلفة: زرير يرى احتمال الانقضاء لموضعه الاجتماعي، وأبو سفيان يرى تهديدًا لمقعدٍ يتوارثه الفخرُ والسلطة، وأبو طالب يرى ابنَه في وسط امتحانٍ لا يقلُّ وجعًا عن أيُّ جرحٍ إنساني.

خرجنا من تحت الشجرة ونحن نحمل أسئلةً بلا إجابات نهائية ؛ لكن في السكون آثرنا أن نسمع ما يكاد يكونُ هسهسةَ صبحٍ: أنماطُ التاريخ تُعيد نفسها في صورةٍ إنسانيةٍ صغيرةٍ. وما بقى لنا إلا أن نحمل القرآن والزمن والكتب، وأن ننتظر « ـ لا بقلقٍ فحسب، بل باندهاشٍ يمتزج بالخوف والحنان.

فهذه صفحاتٌ من زمنٍ لم يكتب بعد، لكنها تبدأ هنا: حيث يقف راهبٌ يتأملُ صبيًا عاديًا تصبح حياته امتحانًا للعالم، ولأهواء الأفراد الذين يحلمون بالحفاظ على ما لديهم بأي ثمن. وفي هذه

الحكاية يبزغ سؤالٌ أساسيٌّ: أيُّ مصيرٍ لأمةٍ إذا ولدت فيها حقيقةٌ لا تملكها؟

وحتى يغلق الليل ستاره على ذلك اللقاء، بقيت نفسُ الشجرة تُراقب؛ ظلّت أرواحٌ تتبادل الهمسات، وأطباقٌ بردت على موائدٍ لا تزال تحلم بوجبةٍ لم تأتِ. والسماء فوق صومعةِ بحيرى تذكّره — وتذكرنا — بأنَّ الزمان محكٌّ وليس فزاعة: سيُجلّى ما كان خفيًا، ويُظهر ما كان مستترًا بين طيات البشر.

X

لم يَهدأ لِبحيرى قرارٌ حتى خلَس إلى مهجعِ أبي طالب، حيثَ رياحُ الصحراء تُهمسُ بأسرارِ لياليها، والنجومُ تَقَصُّ حكاياها على أسقفِ بيتٍ عتيقٍ تعبقُ فيه رائحةُ دُخانِ السجائر والعود. استقبلَه أبي طالبُ بوقارٍ أمْلَسَتْهُ السنين؛ عيناهُ حادتانِ، وظهرُهُ منحنٍ كمن حملتْهُ الأعباءُ دون أن يَنهار.

قال بحيرى وهو يَميلُ إلى النافذةِ كي يلقَ نظرةً على قافلةِ قريشٍ التي ابتعدت عن السواحلِ وتوارَتْ خلفَ الكثبانِ: «أيها القرشي، أرجِع بابنِ أخيك هذا إلى مكة».

أضاءَت دهشةٌ على وجه أبي طالب، ثم تَلَفَّتَ إلى بحيرى وقال: «أرجَع؟ وما لي بالقافلة؟ ما لي في تجارتِها؟»

اقتربَ بحيرى خطوةً، وبدا صوتهُ كمن يهمسُ بسرٍّ يقودهُ التاريخ: «أعهدُ مالكَ في القافلةِ إلى سيدِ قريش، وعدْ بالصبي إلى بلده. إنّ أمرك اليومَ مريبٌ أيّها الكاهن».

ارتعَشَت شفتا أبي طالب قبل أن يردّ بعنفٍ رقيق: «أعده؟ وفي حراسةٍ شديدةٍ؟ أتحدثُ مع رَجُلٍ أم مع غريبٍ جاء ليقِصَّ عَلَيَّ أحلامه؟»

تَسَامَتْ في زفيرِ بحيرى نفَساتُ الخوفِ والعلمِ معًا، وكأن الحقائقَ الثقيلةَ كانت تُثقلُ صدرَه:

«أثرتَ مخاوفي أيُّها الراهبُ بحيرى... ألم تَقُلْ هذا؟ أطعْني يا أبا طالب؛ فإنك إن لم تُعدِ به أصابَه في الطريقِ إلى الشام شرٌّ جسيم».

هنا ارتدّ أبي طالب إلى خلفِه؛ صوتُهُ صارَ أَحكمَ: «لن أطيعَ حتى تُفصحَ عن سببِ هذا الخوفِ. ما شأنُك أنتَ في مصيرِ ابنِ أخي؟»

ابتسمَ بحيرى ابتسامةً لا تُبشّرُ بخير:

«إنه سيكون لابنِ أخيك هذا شأنٌ — شأنٌ عظيمٌ — وإنّ اليهودَ ليتربّصونَ به».

أطرقَ أبي طالبُ طويلًا، ثم قالَ بطَرفِ قلبٍ تضطربُهُ المشاعر:

«وماذا يريد اليهود من ابنِ أخي؟ وما وترُهم منا أحد؟»

جاءَ جوابُ بحيرى قاطعًا، كقِطعِ شمسٍ تقطعُ ضبابَ الصباح: «اطعْنِي يا أبا طالب، فوَاللَّهِ لئن تَمكّنوا منه لِبَغوهُ شَرًّا. أسرعْ بالصبي إلى بلادِك».

صارَ البيتُ صامتًا للحظاتٍ؛ سكونٌ يزنُهُ احتمالُ أن يحدثَ التاريخُ ما لا تُبشِرُ به العيون.

تَراكمت الأسئلة على صدر أبي طالب كبنادقٍ مَحمولةٍ في ليْلٍ عاصفٍ. ورَغم أنَّ قلبَهُ لا يَميلُ إلى الفزع، فإن أمورًا من جنسِ الحِكمةِ ألزَمَتهُ أن يَصغي. حكى له بحيرى عن رؤيٍ رآها: رؤيا تتداخل فيها علاماتٌ قديمةٌ ونبوءاتٌ هامِسةٌ، عن طفلٍ قد تُصبحُ عيناهُ مرآةً لزمنٍ جديدٍ، وعن ألسنةٍ تخبّئُ نَفْسَها في ظِلّ التاريخ.

تَبادلَ الاثنان النظراتِ؛ نظراتٌ كانت كأنها تُوزنُ أنفاسَ العالم. ثم أقبلَ أبي طالبُ بوجهٍ صارَ أهدَأَ، ونطق بصوتٍ رصينٍ: «إن كُنتَ تثقُ بأنّ في الأمرِ خطرًا على الصبي فإنى سأفعلُ كما تأمر. لكن أخبرْني: ما دليلكَ؟ وما الذي يقضُّ عليه هذا الخطرُ؟»

جاذَبَ بحيرى برداءِ صدره، وأشارَ إلى رقعةٍ من الأرضِ كأنما يَقرأُ فيها خرائطَ الأبد: «ليس لي بدليلٍ ماديٍّ. الدليلُ ما بينَ

الرؤى والهمسِ والنجومِ؛ لكنّي تعلمتُ عن معالمِ زمنٍ تُخبرُ أنَّ هذا الصبيَّ سيَحملُ رسالةً تُرعِبُ من يَجحدونَ نورَها. والذين يَخشونَ النورَ — اليهودُ هنا — لا يؤمنونَ إلا بأنفسِهم حينما تجتمعُ الفرصةُ لهم ليمسُّوا، بالأذى، من يَشكُّونَ في أمرهم«.

لفَّ القديمانَ صمتٌ طويلٌ؛ صمتُ الرجلينِ يعقدُ قرارًا قد يُقاسَم التاريخ. في الخارجِ، انتفَختْ رياحٌ شَحَبَتْ لونَ السماءِ، وكأنَّ السماء نفسها تُعيِّنُ ساعةَ السفر. مرَّت لحظةٌ شدَّ فيها أبي طالبُ قبضتَه؛ كان الإيمانُ بالواجبِ أقوى من حُبِّ الحفاظِ على الراحة: «إذًا، سأُعِدُّهُ. لا بدَّ أن أحميه، وإن اقتضى الأمرُ أن آخذَهُ أنا شخصيًّا تحتَ جناحي. إذا حَدَثَ شيئٌ فإني أُحَمِّلُ نفسي وزرَه«.

نظرَ بحيرى إليه كمن يَحوّلُ ثِقيلاً إلى خفيفٍ بخبرٍ واحدٍ: «اذهبْ الآن، واجهزْ الحرّاسةَ. لا تُحدّثنَ أحدًا إلا من يلزم. واعلم أنَّ مسارَ هذا الطفلِ ليس محضَ صدفةٍ — إنه جزءٌ من شيءٍ أكبرَ؛ شيئٌ يَطلبُ منّا أن نَختار: إجرَاءَ الخَوفِ أم اتخاذَ مسؤوليةِ الشجاعةِ«.

صعدَ أبي طالبُ إلى سطحِ البيتِ، حيثُ بزوغُ الفجرِ يلوّنُ الأفقَ بلمساتِ ذهبٍ بليغة. هناك، وبجانبِ قِبلةٍ قديمةٍ، خاطبَ قلبَهُ: «يا نفسُ، ما عِنادُكَ؟ هل تُبقي طفلاً في أمانٍ مصنوعٍ من العادات، أم تُطلِقُهُ لتواجهَ قَدَرَه؟«

ولم تمضِ ساعةٌ حتى كان الصبيُّ مُعدًّا للرحيل؛ لا بَريقٌ في عينيه يُخفيه سويّ براءةٍ لا تعرفُ أداءَ السياسة، ولا وعيَ الكبارِ ولا قسوةَ العوالمِ القادمة. تحرَّكَت القافلة، وأضاءت الدروبُ تحتَ أقدامِ الحراس كأنّها طرقٌ تمتدُّ إلى أمكنةٍ لا يعلمُ بها إلا القدر.

وفي القلبِ، ظلَّ بحيرى يحدّقُ في الأفقِ، كمن يُسلِّمُ لثقةٍ قد تكونُ برّاقةً أو سيفًا. أما أبي طالبُ، فكانَ يسيرُ بين قافلةٍ من الناسِ، وبِداخلِه صراعٌ قديمٌ: بين الخوفِ من المصيرِ، والرغبةِ في أن يكونَ للإنسانِ موقفٌ حين يَظهرُ التاريخُ على بوّاباتِه. أما الصبيُّ، فغادرَ وهو لا يَعلمُ أنَّ العالمَ، من بعدِ سفرهِ الصغيرِ، لن يَعودَ كما كان.

في ذاكرة الزمن، حيث تختلط الحكاية بالأسطورة، ويرتفع التاريخ فوق جدران الأرض كأنه مرآة للقدر، يُروى أن العباس بن عبد المطلب كان بعد سنين طويلة يحدث جلساءه عن تلك الواقعة التي حفرت في قلبه، وكيف أن أخاه أبا طالب لم يجد بُدًّا من طاعة الراهب النسطوري « بحيرى « ، فعاد بالصبي العظيم إلى مكة، مستشعرًا أن في هذا الغلام سرًّا يتجاوز طاقة البشر على الفهم.

كانت القافلة قد عبرت الصحراء، ووراءها ظلال اليهود الثلاثة الذين لم ينقطعوا عن التربص، يتوارون بين التلال والواحات، كأنهم أطياف من زمن آخر، يحملون حقدًا غامضًا على نبوءة لم تكتمل بعد. كانوا يراقبون الغلام بعينين متقدتين، وكأنهم يبحثون في ملامحه عن بصمة الوحي التي نطقت بها كتبهم القديمة. كلما اقتربوا من مكة، اشتد خوف أبي طالب، وانعقد قلبه على يقين غامض أن هذا الطفل ليس كغيره من أبناء قريش، وأن كل همسة تُقال حوله ليست إلا نبوءة تتسرب من وراء الغيب.

في طريق العودة، حين لامست أقدام الركب تخوم مكة، أخذ القلق يتسلل إلى أبي طالب. كان يشعر أن المؤامرة لم تُحبط بعد، وأن اليهود الثلاثة قد يجدون في ظلال الحرم أو في أطراف الوادي ملاذًا لمكرهم. استنجد إذ ذاك بشبان بني هاشم، فتدفقوا حوله كالسيوف، كأنهم يُدركون أن حماية هذا الغلام هي حماية لقدرٍ سيصوغ تاريخ الأمة. لكنّ القدر لم يدعُ الجميع إلى النجاة؛ ففرّ اثنانٍ من اليهود وقُتل ثالثهم، وكأن السماء شاءت أن تترك دمًا على الرمال ليكون شاهدًا على أن اليد التي تمتد إلى الصبي العظيم لا تُفلح، وأن القدر يحوطه بسياج لا ينفك.

ويقول العباس فيما بعد، وهو يسترجع تلك اللحظات، إن العيون لم تكن ترى في محمد سوى يتيم قريش، لكنه كان يشعر أن وراء اليُتم إرثًا أبديًا، وأن وراء صمته حكمة لا تتسع لها القوافل ولا الحكايات. ولو أن اليهود – كما يقول – قد علموا ما كُتب عنه في اللوح المحفوظ، ما طال تربصهم، ولا امتدت أيديهم بالشر، بل لخرّوا سُجّدًا عند قدميه، وقد علموا أن هذا الغلام هو النبي المنتظر الذي ترددت أصداؤه في صحفهم القديمة.

كانت مكة في ذلك الزمان أشبه بمرآة مفتوحة على الغيب. الأسواق تضج بالباعة، والأصوات تتعالى بين جدران الحرم، والكعبة تقف شامخة وسط الرمال، تحمل في صمتها سرّ الأجيال. في تلك الأجواء، كان محمد يسير بين أعمامه وأبناء عمومته كغصن غضّ، لم تكتمل فيه ملامح الرجولة، لكن في عينيه بريق نجم، وفي جبينه سكينة تشبه الفجر. لم يكن الصبي يدرك بعد معنى هذا التربص، ولا ثقل النبوءة، لكن قلبه الصغير كان مطمئنًا بطمأنينة من يَعلم أن الله يصنع له من وراء الغيب طريقًا محفوظًا.

أما أبو طالب، فكان يغالب مشاعره بين الخوف واليقين. يتساءل في سرّه: ما هذا الصبي الذي يجتمع عليه اليهود والنصارى والكهان؟ أي قدر يُخبئه الله في صدره؟ أهو قدر سيحمل قريشًا إلى مجد جديد، أم قدر سيجعلها تُكابد صراعًا مع الأمم؟ كان الليل يمرّ عليه ثقيلاً، يحدّق في السماء ويشعر أن النجوم تقترب، وكأنها تُنصت إلى حيرته. لكنه كان يعود إلى نفسه فيجد جوابًا واحدًا: أن هذا الغلام أمانة، وأن الله هو الحافظ له.

وقد بقيت تلك الحادثة تُروى في مجالس مكة، بين مَن آمن ومن كفر، بين من رأى فيها مجرد واقعة عابرة، ومن رأى فيها إشارات القدر. حتى إذا جاء الوحي بعد سنوات، وعاد محمد من غار حراء يرتجف قلبه من هول اللقاء، تذكر العباس ما حدث على مشارف بصرى، وتذكر أبو طالب نداء الراهب وتحذيره، وكأن الكلمات القديمة قد وجدت آنذاك تفسيرها.

ولم يكن الأمر عند المسلمين من بعد مجرد ذكرى، بل صار شاهدًا على أن العناية الإلهية كانت تحوط النبي منذ نعومة أظفاره، وأن المؤامرة الأولى انكسرت كما ستنكسر كل مؤامرة من بعدها. وكأن الله أراد أن يقول للبشرية كلها: « إن هذا الرسول قد صُنع على عيني « ، فلا خوف عليه من الناس، ولا سلطان لهم على حياته أو رسالته.

وهنا يتردد في الذاكرة قول الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ – صدق الله العظيم.

وكانت تلك الكلمات آخر ما يستقر في قلب العباس وهو يحكي، إذ يرى أن الوعد قد تحقّق، وأن العصمة التي ابتدأت منذ طفولة محمد في رحلة الشام الأولى، لم تفارقه حتى أدى الرسالة كاملة، وترك العالم على موعد مع فجر جديد.